٢٠٢١م

روايــة

الطيف الثائر
الجزء الأول

النَطــاسِي

د. محمد الشربيني داوود

يصدر عن:

دار ميتا بوك
للطباعة والنشر والتوزيع

رواية
**** ***** ****
النطاسي
**** ***** ****
د. محمد الشربيني داوود
**** ***** ****
الإشراف العام
أيمن عبيد
**** ***** ****
الإشراف الفني
السعيد المصرى
**** ***** ****
الطبعة الأولى: ٢٠٢١م
* **** ***** **** *
التجهيزات الفنية والطباعة:
METABOOK
Publisher
002 01013121217
darmetabook@gmail.com

• رقم الإيداع: 2021-4470
• الترقيم الدولي: I.S.B.N : 978-977-6644-71-1

• الأراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الدار، بل تعبر عن رأى المؤلف في المقام الأول.
• حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميا، أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بأذن كتابي مسبق من المؤلف.

الألم والمعاناة أمران لا مفرّ منهما للوصول إلى ذكاء كبير وقلب عميق.

فيودور دوستويفسكي

******

لا أشعر بالوحدة أبداً عندما أكون مستمتعاً بوقتي.

أوليفر ساكس

******

رغم حطام قلبك يوماً ما سيزهر الحب فيه ويرممه.

فيودور دوستويفسكي

تنويــه:

بدأتُ بكتابة هذه الرواية فى مارس ٢٠١٩م بدولة الكويت، ثم واصلت الكتابة فيهـا بدولــة الإمــارات (مدينــة دبــي) وأنهيتهــا بمصــر فــى ينــاير ٢٠٢١م.

كلمة الناشر:

تدور أحداث الرواية عام ٢٠١٨ م، ثم تعود إلى الماضي لعام ١٩٨٨م، حيث البداية لتجتمع كل الخيوط فى غرفة يونس التي يمكث فيها دائماً، ثم تمتد إلى المستقبل. رواية شائقة تأخذك لعالم آخر وتعود بك محملاً بكثير من الأسئلة وربما ببعض الإجابات ولكن هل أنتم متأهبون وفي استعداد تام للمعرفة؟

تمهـيد:

أعيش فى هذا القرن الحادي والعشرين الكئيب، كئيب على الرغم من تأثيره علينا حتى من قبل أن يبدأ، وخاصة تأثيره على الانسان الذي يقوده سوء حظه الي العمل مثلي فى التحليل النفسي، على الرغم من ان هذا العمل هو أعظم عمل من الناحية الفكرية والهدفية فى العالم، أنني كعادتي لا أكتفي بإدراك الناس المباشرين لي ولكن ادراكي أكثر الي الناس الفاعلين فى هذه الحياة، وانا مقتنع تماماً ان الإدراك والتحليل الشديدان للناس مرض مزمن، بل وأنني أُجبر على ذلك، ولأنها حالتي الطبيعية، واعتقد ان أحوالي الطبيعية هذه تجعلني أزداد انهماكاً لإدراك وتحليل الخير والشر ولم تختف فى نفسي الرغبة فى الكفاح ضد كل ما هو فساد.

لقد قاسيت الكثير من العذاب فيما أراه فى أُناس كثيرين، وبلغ بي الأمر ان صرت أشعر بنوع من المتعة عند العودة الي البيت للركون الي زاويتي فى كل ليلة وقد قمت بادراك وتحليل أخلاق الناس الباطنة والنظر الي أحوالهم وصفاتهم المحددة التي تميزهم، ولكن هذا كله يقرض فى نفسي ألماً وحزناً، فلا يغرنك هذه الأناقة والثراء الواضحين فى ملابسي، ولا السيارة، أو السائق الذي ينتظر خارج الكلية، ولا كمية الدولارات التي أحملها فى حقيبتي، ولا طريقة كلامي التي هي ليست سوى

تكـرار لأفكـار كتّـاب ومفكـرين آخـرين قـرأتهم وحفظـت أفكارهم، فأنا لستُ سوى رجل حزين. حزين جداً.

ان مـن أصـعب الأشـياء أن تفهـم الآخـرين ولكـن أولاً قبـل أن تفهمهـم يجـب أن تفهـم نفسـك، هـذا لـيس بـالأمر البسـيط وهـذا يقودك الي الادراك والوعي الصحيحين وهـذا الادراك الشـديد هـو فى الحقيقة مرض مزمن. ولكن وسط الاضطرابات النفسية التي لا تنتهي والبيئة الغربية المعادية، قابلتُ صديقي الإنسان المحدود.

أجـل، إنـه إنسـان محـدود لأن الفـرد فـى هـذا القـرن يجـب أن يكون إنساناً لا شخصية له، أما الإنسان الذي يتميز بشخصية الإنسـان النـافع والمثمـر فهـو انسـان محـدود، هـذا مـا تعلمتـه طيلة سنوات عمري الماضية.

هو فى الثلاثين من عمره الآن ولعلك تعرف أن ثلاثين عاماً هي حياة كاملة فى قرننا هذا وكأنه فى منتهي التقدم من العمر خاصة وأنه قد أفنى حياته فى الادراك الشديد والوعي الجيد للأمور والأشخاص أيضاً مثلي، فهي مسألة روحية بالنسبة لي وفطرية بالنسبة له، لذلك يزيد عن إدراكه الشديد بالصراحة مع الناس دون أن يشكل هذا عبئاً علية ولا يضطر لقول كلام غير مقتنع هو به، قد يجرح هذا مشاعر الناس أحياناً خاصة فى الوقت الذي لا يريد أحداً أن يكون صادقاً ومخلصاً وصريحاً فهو مرض كامن فى عقلة، وكما قلت وأصر أنه مرض مزمن، ولو

كان لك متسع من الوقت لتصبح هذا الشخص فإنك لا تريد ذلك، وحتى إذا رغبت فى ذلك فإنك لن تفعل شيئاً يجعلك تصل إليه، لأنه فى الواقع ربما لا يوجد هذا الشكل الذي لا يتفق مع القوانين الأساسية الطبيعية التي تميز إدراكنا نحن وربما بسبب القصور الذاتي والاستمرارية الذاتية التي تعتبر نتيجة مباشرة لتلك الحياة الطبيعية، وهذا يراه الناس أمر سيء عادةً بل ومنافٍ للأخلاق ويقول الناس أن من يفعل ذلك هم الحمقى والأفراد الذين لا قيمة لهم وأنني معهم وألقي هذه الحقيقة فى وجوه كل المثقفين والمحترمين والمبجلين، بل أنني ألقي بهذه الحقيقة فى وجه العالم كله ولي الحق فى ذلك لأنني سأعيش حياتي كلها فى ذلك، هي. هي. هي.

انتظر...

دعني ألتقط أنفاسي هي. هي. هي.

فقد توثقت العلاقة بيني وبينه مؤخراً، كان فى وحدته وعلى استعداد تام للالتصاق بمن يشجعه ولو بابتسامة، وشخصيته المضطربة لا توحي بالاستقرار ثمة أشياء ظاهرة وباطنة عنده وهي على الأغلب من ذاكرة الماضي ولكنه لم يحكي لي شيئاً.

******

الفصل الأول
الطـيف المجهــول

جلستُ فى مكتبي ذات يوم شارد الذهن، سمعت أحداً بالباب يقرع، ثم فُتح الباب وفجأة دخلت قطة سوداء وكانت القطة تموء بصوت غريب وبشكل يمزق القلب فزعت منها وانتفض جسدي، وفي بطء نظرت اليها فقد وجدت عيناها تتألق، ألتفتُ اليها وأراقبها بإمعان أكثر يمتزج بخوف وقلق، وذهبت لأمسك بها فى احكام ورفعتها الي وجهي فى خفة، ولثواني حدقت بها، ثم طرحتها أرضاً، شهقت شهقةً قويةً وهتفتُ:

- رباه. مستحيل.. ابتعدي.. ابتعدي عني.

ثم دخل صديقي دكتور يونس ومعه دكتور هاديسون وتعالت بيننا الضحكات، وقلت:

- لقد توقف قلبي، من شدة الرعب.

لم ألتفت إليهما وإنما ابتسم دكتور يونس لي قائلاً:

- وكأن شيء ما قد اعتصر قلبك.

صمت للحظة كي التقت فيها أنفاسي، ثم قلت:

- يا إلهي، اعتقدتُ أن بها روحاً تحمل شراً لي، ان هذا المشهد يذكرني بعشرات القصص التي قرأتها، أن الجن يتمثل احياناً فى القطط السوداء.

دخل يونس فى نوبة من الضحك الهستيري واهتز جسده النحيل الطويل ولكني أشفقت عليه عندما جلس وتفحصت وجهه، وتنطستُ الأمر جيداً، فوجدت علية خارطة من الحزن الدفين ولا أعتقد أنه يتغافل عن الليل بالدمعة الحزينة، فالمسألة كانت واضحة لي منذ أن عرفته، ثم قال:

- لا تخف أنها قطة زميلتنا دكتورة ميرناف.. لقد انتابك توتر وخوف على الرغم من انه ليس بموقف مخيف.

لم يتكلم الدكتور دكتور هاديسون حينها بكلمه، لأنه فى تلك اللحظات كان مقهقها، ثم صمت لحظة ثم قال:

- نعم. كنت تحدق بها كأنك رأيت ظاهرة تفوق إدراك البشر، لقد انتابك خوف وانتفض جسدك.

وتعالت بيننا الضحكات... هي. هي. هي.

ضحكت بمرح حينها، ثم أحسست بالتعب فجأة، فجلست على كرسي مكتبي ووجدت نفسي لا أستطيع النهوض من مكاني، حينما أردت أن أقوم من مكاني مباشرة وكأنما هناك شيء داخلي جعلني لا أنهض، ثم قلت لهما:

- سأروي لكما موقف مخيف حدث معي من قبل، عندما جئت للعمل بالكلية فى أول عام لي، جلست فى مكتبي يوم ما وبعد الانتهاء من جميع المحاضرات وعند غروب الشمس جلست بمفري وقد غادر الجميع من الكلية واندمجت بالعمل فى بحثي، كانت النوافذ مفتوحة وفجأة قُرع الباب، وحينما فُتح الباب أغلقت المصابيح الكهربائية، لم أستطع أن أبصر أي شيء. كانت الغرفة باردة ومليئة بالضباب البارد، ويتوسط الضباب ضوء فضي باهر مائل للاحمرار وكأنه ينسكب من مكان مجهول فى السماء، توجهت كالمأخوذ من مكتبي، إذ لم يراودني قط أن أهرب أو ألّا أعود وأجلس على المكتب مرة أخري أو أنادي على أحد وحتى لو ناديت لا يوجد أحد بالكلية، فقد

غادر الجميع. جلست على الكرسي وأخذت أحدق فى الطيف المجهول، نحو جهة الضوء الفضي الباهر والضباب الكثيف.

أحسستُ أن شيئاً ما يقترب اليّ من خلال الضباب. وشيئاً فشيئاً بدأ ثمة مخلوق يشبه تلك الذي رأيتُ مثله فى بعض الأفلام المرعبة. هيئته هيئة رجل ملامح غريبة أصلع الرأس، ذو لحية كثيفة، يرتدي ثياب فضية مائلة الي الاحمرار، وبرغم ذلك كان وكأنه يلبس بدلة سوداء تغطي جسده ويصعب رؤيته. كان وجهه قبيح، وكان بعين واحدة، فليس فى محجر العينين الا واحدة. كان يذكرني بالمسيخ الدجال الذي تسمع عنه أحيانا فى القصص.

انكمشت مرعوباً على كرسي حين وقف الكائن عند حافة المكتب من جهة القدمين. أحسستُ بريح باردة، ولاحظت ما يشبه الغضب قد ارتسم على وجهه الفضي. أحسستُ بخوف طفولي بريء وأخذت أستعيذ بالله مع نفسي، عسى أن يختفي هذا المخلوق، فكثيراً ما سمعت عن تأثير الاستعادة والبسملة على كل شيء أثناء الخطر، لكن هذا المخلوق لم يختف. مدّ المخلوق الفضي المائل للاحمرار وجهه لي فامتدّ لأكثر من متر حتى صار وجهه قريباً مني على بعد سنتميترات قليلة. لم يكن يتنفس، وبرغم وجود أنف يتوسط وجهه القبيح الملامح إلا أن أنفه كان بلا منخرين. أغمضت عيني خوفا، لكن بعد ثوان قليلة فتحتها فرأيت فى عينيه ما يشبه ألوان الطيف، ثم سمعت صوتاً وكأنه صوت ميكانيكي وغير بشري يأتي من آلة تسجيل، سمعت الصوت يسأل:

- من أنت؟

ارتبكت وقلت متمتم برعب:

- أنا دكتور (.....) أعمل فى الكلية.

- أري ملامحك عربية. مين أي بلد انت؟

- أنا أمريكي من أصل لبناني.

- هل أنت مسلم؟

- نعم

نظر المخلوق الفضي إليّ بتركيز، فرأيت تحولات سريعة وصورا ً فى محجر عينيه الواحدة وكأن فيلما مصوراً مر فى لحظات، ثم سمعت الصوت، يقول لي:

- هذه مدينتي لقد حُكم عليّ بالنفي خارجها من قبل كعقوبة، فألقي بي إلى كوكب الأرض. سُجنت تحتها فى الأرض الثالثة. هذه المدينة كانت غابة كبيرة قبل آلاف السنين، ثم صارت أرضاً، ثم سكنها الوحوش، ثم جاء بني آدم وسكن بها والآن جئت لأحكمها من جديد فقد أطلق سراحي، وصرت أعود إلى هنا كل مئة عام. فى المرة السابقة كان هنا صديقك الإسباني. ورغم أني أنهيت فترة عقوبتي وعدت إلى موطني، إلا أني أزور هذا المكان مرة كل مئة عام كما قلت لك. هذه المرة أنت هنا، لا تخاف، لا أريد أن ألحق الأذى بك، لكن لا تخبر أحداً بوجودي، أنت وحدك ستراني، سأكون هنا معك وحدك فقط، فى هذه الغرفة وبجوار هذا المكتب وفي أي مكان ستذهب فيه، هل فهمت؟

تمتمتُ مرعوباً:

- فهمت. فهمت.

مد المخلوق يده الطويلة على رأسي، ثم سمعت صوتاً صادراً منه:

- أنت انسان زكي. أريدك معي.

فتمتمت مرعوباً

- وماذا تريد مني؟

كنت أفكر مع نفسي بأن ما يجري مجرد تخيلات، لذا شعرت بشيء من الجرأة فى الحوار والمغامرة، فقلت له بصوت خافت:

- أنا إنسان وأنت مخلوق غريب لا أعرف كيف أسمّيك فماذا تريد مني؟

تقدم بجذعه الأعلى متمطط ومقترباً:

- أريد علمك. أريدك كي تساعدني بعلمك حتى نمتلك العالم.

- ماذا؟

- كما سمعت.

- وأنا سأحميك.

- لا تخاف مني، على العكس.

صُدمت من سماع ذلك، فقلت:

- نمتلك العالم كيف؟

فقال بنبرة حادة:

- هل تريد أن أخطفك وأذهب بك بعيداً؟

قُرع الباب ثم دخل بعض الأشخاص فى ملابس سوداء مخيفة، وقاموا بعملية دوران حولي مرددين عبارات خدعة فى مشهد مخيف وقد قام البعض منهم بمواقف مخيفة وشعرت وقتها بالخوف بل واحسست بالخطر الذي يحدق بي واندفعوا الي فى حركات مرعبة، ثم رقصة مضحكة غريبة وتعالت ضحكاتهم الثملة بالنشوة وواصل الأشخاص رقصتهم على إيقاع صاخب عجيب حتى صحت بصيحة رهيبة مفزعة فتوقف الأشخاص عن الرقص على الفور، كانوا بعض طلابي قاموا بهذا كموقف مضحك منهم، أنه كان عيد الفزع، فالأسطورة عندنا تقوم على أن هناك إله يدعى إله الموت أسمه سامان، ونحتفل لإخافة الأرواح الشريرة السيئة القادمة من العالم. لقد قفز قلبي رعباً يا يونس. هي. هي. هي.

صديقي الانسان المحدود دكتور يونس.

أسمه يونس....

دكتور يونس عالماً حاذق عال، وشاب وسيم، عيناه جميلتين زرقاوان زرقة صافية وبشرته مائلة الي الحمرة، وجسده نحيل طويل، هادئ السمات خلوا من التعبير أكثر من أن يكون غارقاً فى التفكير أو شارد الذهن ولكنه يتَطَّس فى كل شيء.

صمت دكتور يونس للحظة، ثم قال لي:

- ان أسطورتكم هذه خيالية، ولا أعرف لماذا نسعى لتوليد مشاعر الخوف عبر الخيال؟ أتعجب من موقفك هذا وأنت طبيب نفسي.

- ان عالم الجن من الحقيقة وليس من الخيال، والإنسان بطبيعة الحال يخاف ما يجهله ثم يتخيل أشياء تدعم خوفه..

- أعلم هذا.

صمت دكتور يونس للحظة ثم استرسل قائلاً:

- ان لي أسطورة حقيقية مليئة بالخوف والفزع.

- اسطورة؟ هل لديك قصة تستحق أن تروى؟

- نعم، هي اسطورة حقيقية وليست قصة.

قُرع الباب ودخلت الدكتورة ميرناف لتأخذ قطتها ومعها دكتور هاريسون وتبادلنا التحية وجلسا معنا، وكما توقعت قد أمسك يونس بمكنسة وكنس أفكاره وحكايته التي أراد أن يقصها لنا ولكن بدأنا نتكلم نحن الأربعة و يا له من حديث رائع وكان بين دكتور هاريسون وبين دكتوره ميرناف صداقة من الناحية الثقافية ومتكافئين فكرياً فقد كان عقل أحدهما يتطابق مع الآخر، نحمل جميعنا الجنسية الأمريكية باستثناء دكتور يونس وبدأنا نتحدث عن وضع خططاً لقضاء هذا الصيف معاً فى فيينا او فى باريس و نتحدث عن آخر لحن قصائدي بأنغام الموسيقي العالمية وفجأة تنحنح يونس وتحرك بشيء من الاضطراب فى كرسيه نظرت الية وجدته ينظر الي ميرناف ووجدتها تبتسم، ثم خرج من مكتبي معتذراً عن الجلسة معنا،

فى رائي لا ينقص هذه المرأة شيءً ولكن لماذا اضطرب هكذا وخرج فجأة؟ مرت دقائق وانتهي حديثنا مع دكتورة ميرناف وذهبت أنا ودكتور هاريسون الي يونس فى مكتبه، وطرحت علية السؤال؟ فأجاب قائلاً:

- ان العالم لا يبتسم لرجلين وامرأة يتحدثون معاً بدون عفة.

- بدون عفة!!

- نعم، تقررون العيش معاً عند قضاء عطلت الصيف.

- أنا أحترم صدقك وصراحتك، ولو تكلم كل الأصدقاء بهذا الصدق لأصبحت الحياة أغني وأكثر صدقاً، وكان كافياً أن أفهم وأن أفسر احمرار وجهك تلقائياً وخجلاً.

صمتُ لحظة ثم واصلت مستفسراً:

- لكن هل خروجك هذا وضع الأمور فى نصابها الصحيح؟

- يكفي ان اتجنب اللوم.

- لكننا هنا فى المجتمع الأمريكي لنا فكر متحرر ونرفض القيود الذي فرضها المجتمع؟

- لا أعتقد ذلك، ربما الأمر ليس له علاقة بالحضارة ولكن بالتربية والدين ان اللّه وضع لنا قيود تسير منظومتنا الأخلاقية.

- تقصد فى الإسلام؟

- اعتقد أنه لا تعارض فى هذا بين المسلمين وغير المسلمين ولو بدأ الغرب إزالة المفاهيم الخاطئة عن الإسلام وفهموا المعاني السامية لزادت محبتهم للإسلام واحترامهم للمسلمين.

دكتور هاريسون لم يفعل شيء سوي أن يهز رأسه ولم يجد الكلمات المناسبة ليقولها، ثم أخرجت تلفوني المحمول الثقيل من جيب سترتي ونظرت فى ساعته، كانت الساعة الخامسةً مساءً.

- لن أكون سعيداً اليوم لو تناولت الغذائي بمفردي، ان غداً يوم عطلة ولابد أن نقضي اليوم بعيداً عن كل المسائل البالغة الأهمية.

- تقصد العمل والدراسة؟

- وهل هناك ما يكون أهم من هذا؟ يجب الابتعاد عن المسائل العاجلة تلك.

اعتذر لي دكتور هاريسون عن تناول الغداء معنا فى أول الأمر، واعتذر يونس لهاريسون عن الطريقة التي استخدمها معه فى الحديث.

******

خرجنا من الجامعة وها نحن جالسون فى مطعم تيتلزجيرل وهو من أفضل مطاعم مدينة أوهايو وبدأ يونس بتصفح الوجوه حوله، ثم جاء النادل وهو شاب فى الثالثة والعشرون من عمرة، بشرته بيضاء، شعره بني ناعم رطب ممشط الي الوراء، ألقي يونس نظرة على ساعته، وكأنه يقول ان هذا الوقت قد أهدر من حياته ولكن أهدر على ماذا؟ ثم تحدث هاريسون عن كارولين الجميلة وعن صوتها المثير وأنها كانت تقول له دائماً أنه الرجل الوحيد فى حياتها، ولم يكمل حديثه معنا فقاطعه يونس، وقال لنا بنبرة غضب:

- لا تتحدثوا عن الفتيات السيئات.

- انها زميلتي منذ الدراسة الجامعية، لقد جعلتني فى حيرة من امري.

صمت دكتور هاديسون لحظة، ثم قال له موبخاً:

- بحق الله أرجوك توقف، توقف عن التفكير بهذه الطريقة، أنظر حولك وخذ نفساً عميقاً واسترخي واستنشق هواء الربيع أنه جميل ومائل للبرودة.

- لماذا تريد أن تعيش فى بؤس؟

- ان البؤس الذي تقصده ان أكون عاجزاً عن الحب، ولكني أعلم أن كل شيء فى الحياة يُكتب لنا فيه الحب، وأنا أدرك أن لكل منا توأم لروحه لابد أن يلتقي فإذا لم يكن الأمر كذلك فإن الحياة تغدو بلا معني.

تلفت يونس حوله وكانت جميع الطاولات فى المطعم قد امتلأت بالرجال والفتيات الذين راحوا يتناولون الغداء وبعد تناول الغداء لم يُعجب يونس بهذا المكان المزدحم بل وكان مضطرباً أكثر مما سبق، بالتأكيد انه شخصاً غريباً، ذهبنا الي مقهى كي نحتسي القهوة وكان مكاناً هادئً ومعظم الذين جاءوا اليه لاحتساء القهوة، كانوا من المتقدمين فى السن، كان أحدهم يحمل صحيفةً بيده وكوب قهوة باليد الآخر، وكانت غيوم من الحمام تحوم فى السماء ثم تنقض فجأة، لم تكن تلك الحمامات تعكر صفو المياه الراكدة بالقناة التي تعكس علي صفحتها صور للأبراح المرتفعة الممتدة علي ضفتيها بجمال واضح.

لم يعلق دكتور هاديسون على بعض ما قاله يونس وإنما قال له:

- أرجو أن تتحمل رأي، ولكني لا أستطيع فهم ما تقصده احياناً ولا أستطيع أن إبدي رأيي فيها تقول، ولكن انظر حولك؟

انتبه دكتور يونس الي ما قاله ولم يعلق على شيء مما قاله ثم نظرت إليه بتركيز وهو يقول بنبرة مشوبة بالتحدي واستقلالية الرأي:

- أري الناس يتقاطرون من جميع المدن وكأنهم يرفضون الموت قبل أن يباركهم هذا المكان.

- تقصد هذا الجمال، كم ضاعت أمور منك فى هذه الحياة؟

- لم يضيع مني شيء.

- بلي أنت لا تريد ان تنظر حولك، او تنظر ولا تري.

- اعلم أن هناك أشياء جميلة فى الحياة، ولكنك أيضاً ضاعت منك أمور كثيرة يا هاريسون، فقد أضعت وقتك كله فى التفكير بابتسامة خادعة، تارة تتحدث عن الفتاة ذات العينان الساحرتان، وتارت تتحدث عن الفتاة ذات البشرة الناعمة، والبشرة الدافئة، والمرأة الممشوقة والآخر الطويلة، ان هذه الأمور هي التي تدهم عقلك وتغزو مخيلتك، هل هذه الأمور هي التي تجعلك تشعر بالحياة؟ هل سألت نفسك ما هو مصيرنا بعد الموت؟

لقد وجدنا عنده أجوبة لم يستطيع أحد أن يجيبنا عليها، وجعل هاريسون يفكر بالجانب الديني والروحي، وبعث فى نفسه طمأنينة وقوة روحية، ثم اعتذر هاريسون لنا عن استكمال اليوم معنا، ثم قال:

- انها كانت فرصة رائعة بقضاء الوقت معكم.

وانصرف.

نهض أحد الجالسين إلى الطاولة المجاورة لنا، كان احتكاك الكرسي المعدني على الأرض ضعيفاً ولكن اضطراب يونس من هذا الصوت جعلني أشعر أنه يعاني من اضطراب ما اعرفه جيداً، ولكني أكتفي بأن أذكر انه قد يعاني من اضطراب وجداني، وهذا الأمر جعل قلبي يرق له وأشفقت عليه.

- ذكرت لي أن لديك قصة تستحق أن تروى؟

- بل هي اسطورة حقيقية وليست قصة.

- اعلم أنك تعيش وحيداً.

- نعم أعيش وحيداً وسعيداً هنا فى أوهايو أنها مدينة جميلة.

- أقصد فى بلدك.

- وكيف أعيش حياتي وحيداً فى بلدي؟

- هل من المفترض أن يعيش بعض الأشخاص وحدهم؟

- هناك بعض الأشخاص خلقوا كي يعيشوا وحدهم.

- لا. لدي أهل.

ابتسمتُ، فنظر إلي، ثم قال لي جاداً فى الحديث:

- لي أهل طيبين يكثر فيهم الخير، ومنهم دون ذلك، يندر فيهم الخير.

قلت له متعجباً:

- لماذا أراك أكثر الناس حزناً وأكثرهم انطواءً على النفس؟

- أنا لست حزيناً، ولكن عندما أردت أن آخذ حقي من الحياة وجدت كل شيء فيها يُأخذ عنوة.

- وما هو حقك وماذا تريد منها؟

- لا أريد شيئاً.

قلت له مستفهماً:

- لماذا؟

صمت للحظة، ثم أجاب قائلاً:

- أريد أن أعطي الدنيا بسخاء وأن يفيض الحب بين الناس، وأريد أن أقرأ كتباً لم تُقرأ، وأريد أن أكتب ما فى قلبي من كتب لم تكتب.

صحت مقهقهاً: هئ. هئ. هئ. هئ.

وابتسم هو أيضاً، وصاح مقهقهاً، وقال:

- تصور أنني قلت ما قلت دون تفكير فيه!

- أراك تحب العبارات التي تتطلب فهماً آخر. يا لها من طريقة فى الحديث معك. هل تريد ان تحكي لي ألغازاً؟

- لا. قلت لك انها اسطورتي الشخصية ولا تتضمن بعض العقد واتمني ان تهتدي الي فهمها.

- حسناً. حسناً.

- ترك لنا أبي صورة فوتوغرافية لتذكرني به.

- هل غادرك وأنت طفل؟

- نعم. لا أتذكر أبي بتاتاً فقد فارق الحياة بعد أن أنجبتنا أمي ولا يوجد موقف أتذكره إلا عندما اصطفت الكراسي أمام المنزل الذي هو أساس الأسطورة وجاء الناس للتعزية فى وفاته، كان عمري أربعة أعوام وأختي تصغرني بعام، لقد مات ابي كيف؟ ولم؟ لا أدري ولكنه مات فى ريعان شبابه كما عرفت من امي.

- هل توفيت أمك وأنت صغير أيضاً؟

- لا. قد لا أتذكر أبي حقاً ولكني لا أنسي حضن أمي، لقد تغيرت الآن كثيراً هي لازالت فى جلبابها الأسود ووجهها الآن مريض شاحب ولقد تعبت كثيراً من أسئلتي وأنا صغير.

- أين أبي؟

- هو فى الجنة يا حبيبي هو عند ربنا دلوقتي.

وكنت أراها وهي تبكي من وراء ظهري حتى لا تشعرني ان الموت شيء عظيم.

- متي يعود من الجنة؟ رغم انني لست جاهلاً، فقد تعلمت الكثير من أمور ديني وأعلم أن للموت أشياء ليست بها سرور، وقد واصلتُ حياتي بعد ذلك فلا هناك شيء أتذكره ولكن آنس إلى روحه الطاهر، وتذكرني به أمي دوماً، وبعض الأحيان كنت أري صورته وأحاول أن أتذكره، ولكني عرفت الموت حقاً عندما ماتت اختي. أختك ماتت!!

- نعم. كانت تنفق وقتها فى مساعدتي ومتابعتي فى كل شيء على الرغم من أنها أصغر مني سناً وكنا فى ذات الكلية وكانت تحزن كثيراً إذا ما وجدتني حزيناً، ولكني اسمع صوتاً فى أذني يوجه لي اتهاماً بأنني السبب فى موتها، ولا أدري ان كنت أنا حقاً السبب فى موتها؟ لقد عشت بعدها فى ضغوطات نفسية وقلق وتوتر على الرغم من أنني أعلم أن كل من مات قد انقضى أجله المسمى من عند الله

- هل ترغب فى رؤيتها؟

- رأيتها أمس فى منامي برؤية وكأنها تعطني الخبز واللحم.

- لا تجزع على نفسك، فهذا قد يكون هو مفتاح السلامة والنجاة وأعتقد أن أخذ الطعام من ميت بشرة خير بالحصول على الرزق القادم والتغيرات السارة القادمة.

سكت يونس للحظة دون أن يقول شيء، ثم اغرقت عيناه بالدموع، حزنتُ بغموض ونظرت اليه ثم قلت:

- لم تبكي الآن؟

- أبكي عندما أتذكر أختي زينب، أنها كانت رفيقة روحي والصديقة المخلصة لي.

- ان هذا لا يدهشني ولكن لا تحزن يا يونس، وفكر فى يومك ولا تحزن، فأنت بحزنك هذا لا تغير شيء.

- أعلم أنك ترغب فى رؤية والدتك الآن.

- نعم. لقد اشتقت اليها كثيراً والآن مضي من الوقت الكثير وان هي الا شهور قليلة واسافر الي بلدي.

سألته:

- ألم يتحقق لك شيء من احلامك؟

أجاب:

- بلا. الحمد الله ولكن ...

صمت يونس للحظة، ثم واصل قائلاً:

- أعلم انني مثال للبؤس ولكن العبرة بالخواتيم والخاتمة ما زالت مجهولة، أتذكر جدي لأمي عندما كان يجلس على اريكة ذات مسند صغير في بيت تحتضنه الأشجار الكثيفة والعصافير كنت أجلس معه متربعاً وهو في جلباب أبيض فضفاض متلفع بشملة ملونه ويرتدي طاقية بيضاء مربع الوجه نحيل ابيض اللون بحمرة وكان ذو نظرة هادئة مستقرة وجبهته عالية بارزه وانفه طويلة وكانت لحيته بيضاء مسدله على الرقبة كان أستاذاً بالأزهر وآية في الصدق والإخلاص والوقار، كنت اجلس اليه بجلبابي الملونة ليعلمني القرآن فقد حفظته واتقنته على يده وأنا بعمر التاسعة.

- ماذا تعلمت من الحياة؟

لم يجيب يونس علي سؤالي، وانما تساءل قائلاً:

- وهل من الممكن أن يخرج الإنسان من الحياة بنفس النقاء الذي جاء به الي الدنيا؟

صمت للحظة ثم واصل قائلاً:

- سوف اروي لك القصة ولكن لا تقاطعني هذه المرة.

- حسناً. حسناً.

حكي لي دكتور يونس حكايته وحكي عن أشد المواقف تعمقاً، حكاية تلم بكل شيء، فقد أفصح لي وبين ولم يجمجم، ثم راودتني الرغبة فى كتابة حكايته، ولكن كنت أسأل نفسي أحيانا أسئلة تدخل فى العملية الابداعية بجميع أشكالها وأسئلة أخري لها علاقة بالجانب النفسي ، وأحيانا كنت أجيب على تلك الأسئلة بنفسي متذكراً تقييم علماء الأدب ومواقفهم ونقاشهم الفلسفي على مثل هذه الأسئلة، إلا أنني لم أتردد من أن أطرح على نفسي الأسئلة ذاتها، أتساءل: هل يكفي أن أسمع من الآخرين سرداً لحياتهم ومشاعرهم والأحداث التي مروا فيها لكي تكون لي عملاً روائياً؟ الي أي حد يمكن لي أن أتناول الأحداث والشخصيات من واقع الحياة؟ وإلى أي حد يمكن لي أن أغير من الأحداث وأخلق شخصيات وهمية من عندي؟ من أين أستمد بشكل عام مادتي الإبداعية؟ أين دور التجربة الشخصية الحياتية فى تشكيل المادة الروائية لي؟ وكيف تولد الشخصيات فى تصوراتي الإبداعية؟ هل ينبثق العمل الروائي فجأة ويقفز من العدم؟ هل يمر بمرحلة حمل كما تحمل المرأة ثم تلد؟ كما سمعت ذات مرة من الكاتب المبدع دكتور أحمد خالد توفيق، والذي جعلني أشعر أنني لم أكن كاتباً حقيقياً ما دمت على قيد الحياة، أنزل الله علية من شآبيب رحمته. هذه الأسئلة وغيرها كانت تلح على كلما فكرت لكتابة هذه الرواية.

ما ان ابتدأت القصة حتى شرعت الكلمات تلين تحت قلمي وتضعفت فكانت موجة لطف عارمة، كنت فى البداية أمسح الكلمات بلا هوادة وأبدل الكلمات وأغير الصفحات وأبدأ ثانية من حيث كنت أعتقد وكأنني فقدت سيطرتي على الكتابة، ولكن كانت المشاعر ذاتها تعود متنكرةً قليلاً والجمل ذاتها محرفة قليلاً وتتكون من جديد، ولكن انتهي بي الأمر ان فوضت أمري واجتهدت على البقاء متيقظاً ليلاً ونهاراً ومستعداً لكتابة هذه القصة الغريبة فى أي وقت.

******

الفصل الثاني
إيـــــاب

قرر دكتور يونس العودة لخدمة بلده ، فى الصباح وقبل مغادرته أمريكا، تلقي تحيات كثيرة من طلابه وزملائه بالكلية ولاقي اهتماما ًأكثر مما تعود طوال حياته، فقد كان زملائه بالكلية خاصة ممن كانوا متواجدين منذ بداية عمله ينظرون إليه كطبيب ماهر وعالماً حازقً فكان الأكثر نشراً للأبحاث العلمية، فقد حصل علي درجتي الماجستير والدكتوراه من جامعة سينسيناتي الأمريكية ، وقد عين مدرساً من قبل فى كلية الطب قسم الطب النفسي بجامعة طنطا وفى ذات الوقت منحته جامعة سينسيناتي منصب أستاذاً شرفياً لمدى الحياة، فقد كتب قرابة المائة بحثاً علمياً نُشر فى المجلات العلمية العالمية، ونتيجة لأبحاثه العلمية المتميزة حصل على عدة جوائز عالمية مرموقة من أهمها جائزة هيرمان كروزو و تعطى لأحسن رسالة ماجستير فى جامعة نيويورك وجائزة الأستاذ المثالي فى جامعة كورنِل وجائزة إستيفن وايس، وتقدم لأحسن أستاذ فى جامعة كورنِل لأحسن رسالة دكتوراه واختير أيضا زميلاً فى ذات الجامعة، ودُعي أيضاً لإلقاء كثيراً من المحاضرات فى عدة مؤتمرات علمية عالمية فى معظم بلاد العالم ،وعندما كان يشارك فى المؤتمر العالمي للطب النفسي والذي عقد فى البحرين فى نوفمبر عام العام الماضي كتبت عنه جريدة أخبار الخليج مقالاً يشيد بتميزه العلمي وقصة كفاحه، وكتبت عنه أيضاً كل من جريدة الجمهورية والأخبار المصرية.

******

حضر يونس الي المطار مبكراً وتخطي الإجراءات وغيرها ثم دخول الي صالة المغادرون وقد جلس فى مقعد على رواق الطائرة خلال رحلة تستغرق ١٢ ساعة للوصول الي مصر وعندما ركب الطائرة وجلس سألته امرأة عما إذا كان لا مانع من استبدال مقعدة معها حتى تتمكن من الجلوس مع أطفالها.

في الحقيقة وقبل الإقلاع حينما توجه للجلوس فى مقعده الجديد اكتشف انه يوجد فى المنتصف وسوف يشعر بعدم الارتياح ولكنه لم يقرر العودة الي مكانه الأصلي حياءً منها وحياءً أمام الناس.

فيونس يري أن السفر جواً شر لابد منه فهو يعتبره عذاباً ولكنه يستطيع التغلب على مخاوفه أحياناً.

ازداد الحنين إلى بلده، فقد مرت ستة أعوام علي سفرة، يتذكر الآن الذكريات الجميلة فى بلده والتي كانت تتميز بالبساطة والعفوية، يتذكر الحب الذي شعر به لأول فتاة فى حياته، على الرغم من أنه لم يتبادل الكلام الشاعري والهدايا البسيطة التي يتلقاها الأحبة ، انها لغة الحب النقي ولكن دون أي تفسير له يفهمه فهو كل ما فهمة أنه أمام فتاة جميلة دون أي ضرورة للكلام معها أو الإفصاح لها عن شعوره ، كان يونس لا يفهم المغازلة ولا يعرفها وكان دائماً يقول فى نفسه لابد انها تعرف ذلك ايضاً، فهو لا يعرف لغة الحب الكونية، لأن من يتمكن منها يدرك ان هناك شخصاً آخر ينتظره سواء طال الغياب أو السفر هو فقط كان يلتقي معها بتعانق نظرتهما فهو

يتذكر الماضي ولا يتوقع أن يكون المستقبل معها اذ لا وجود لها الا فى تلك اللحظات الماضية ولكن هو علي يقين أن الذي يمكن ادراكه هو أن كل شيء فى الحياة قد يتغير أو كُتب ليلد لنا الحب فلكل منا توأم لروحه لابد أن يلتقي فإذا لم يكن الأمر كذلك فإن الحياة تغدو بلا معني.

وبدأت المضيفة بالتحدث الي الركاب قائلةً:

- صباح الخير سيداتي سادتي اسعد اللّه اوقاتكم بالنيابة عن طاقم الطائرة م ملاحيها والخطوط ..... يرحب بكم كابتن هذه الطائرة الكابتن ..... فى هذه الرحلة رقم ..... والمتجهة بمشيئة اللّه تعالي الي مطار القاهرة وسوف تستغرق الرحلة ما يقرب من ال ١٢ ساعة وسنحلق خلالها على ارتفاع ..... قدم الرجاء من الركاب الكرام البقاء فى مقاعدكم أثناء عملية الإقلاع والهبوط وربط احزمة الأمان وارجاع جميع المقاعد الي وضعيتها الاصلية واطفاء جميع الأجهزة الالكترونية التي لديكم ولمزيد من المعلومات السلامة حول هذه الطائرة المرجو من الركاب متابعة شاشات العرض التي أمامكم أو بالتصفح فى كتب السلامة التي امامكم.

شعر يونس بالقلق عند سماع أصوات المحركات العالية فغالباً ما تسبب الرحلات الجوية قلقاً للمسافرين عند سماع أصوات غريبة فى الطائرة ولكن هناك صوت واحد على وجه الخصوص قد يكون بالفعل مصدر قلق حقيقي ولكن هو أشد قلقاً للدكتور يونس وهذا ما سوف نعرف أسبابه؟

استمر لدقائق ينظر الي الشاشة التي أخذت تعرض تعليمات الامان بالطائرة وتفاصيل عن الرحلة وموقع الطائرة بعد قليل من الارتفاع يسمعها وكأنها أحداث موجعة للقلب، ضغط على أحد الأزرار التي أمامه ليوقف البث من الشاشة الداخلية، ثم توجه إلى زاوية الحمام وبعدها عاد الي مقعدة، جلس وربط حزام الأمان ثم طلب من مضيفة الطائرة ان تصنع له كوبا من القهوة، سحب الملزمة التي أمامه بعد أن وضع الكوب جانبا، قرأ صفحة الغلاف التي كانت تحمل عنوان المعالم السياحية العالمية، أخذ رشفة قهوة ثم بدأ بقراءة بعض النصوص الخاصة بصور بعض معالم الدول.

بالطبع انه ليس إنساناً كاملاً كأي شخص ولكن كيف يمتلك القدرة على التميز والنجاح فى وسط أكاديمي متميز ومتعدد التخصصات؟ قد لا يفهم كثيرون هذا السلوك فى حياته لأنه يمثل فئة نادره من مجتمعنا المصري ويمثل ايضاً فئة نادرة من الباحثين الذين يعودون الي مصر بعد إتمام دراساتهم بالخارج وعادة تتميز هذه الفئة وخاصة الذين يتخرجون من جامعة مرموقة يشعرون برغبة قوية فى التغيير فهو يري ان النجاح الكامل لا يتم ال فى بلده.

******

تجلس بجواره فتاة جميلة تريد التحدث معه، بدأت بالحديث معه باللغة الانجليزية ولكنه لا يجيب عن سؤالها أول مرة ثم عادت وسألته مره أخري.

ماذا تفعل فى أمريكا؟

أجابها يونس متأخراً فقال:

- كنت أدرس الدكتوراه بكلية الطب جامعة سنسناتي فى ولاية أوهايو.

أجاب عليها يونس ولكنه لا ينظر إليها فهو دائماً يشعر بالقلق والاضطراب لكل ما حوله ويفتقد الي تطبيق كل ما يعرفه فى الحياة اليومية أو أنه لا يعرف بعض منها.

أنا ميرفت أدير محلاً لأدوات التجميل فى مدينة آشلان بولاية أوهايو أيضاً.

هز يونس رأسه أسفل وقال:

- أهلاً.

أعتقد أنك عربي؟

نعم، انا مصري.

في أي تخصص تعمل؟

أنا مدرس بكلية الطب، الطب النفسي جامعة ...

التحليل النفسي! ... رائع.

.....

ان الطب أحد أكثر المهن نبلاً فالحياة.

اشكرك.

أنا فرنسية من أصل جزائري.

لماذا تخصص الطب النفسي؟

صمتت للحظة ثم همست فى نفسها متسائلةً: هل الصداقة من الممكن ان تجمعنا بعد أن جمعتنا هذه الطائرة؟ نظرت اليه، ثم قالت:

لاحظتُ أن البعض لا يهتمون بالإنسان ككيان فكري ونفسي فى حد ذاته، على الرغم من أن العقل العجيب يمكن أن يحد من حدوث أو تفاقم أمراض جسدية عديدة.

ابتسمت له ابتسامة خفيفة ثم قالت:

حقاً ما تقوله وأنا أري أنك تمتلك آليات وطرق تستطيع بها جعل المريض يثق بك ويتكلم معك بأريحية.

ما سبب زيارتك الي مصر؟

لدي برنامج سياحي فى مصر فانا أحب سياحة العزلة وأنا من عشاق الشواطئ فسوف أذهب الي الغردقة وشرم الشيخ ومرسى علم وإذا سمح لي الوقت سوف أتسلق الجبال وأمارس الغوص والسفاري فأنا من عشاق المغامرة وقد ذهبتُ فى العام الماضي إلى المعابد الفرعونية العريقة فى الأقصر وأسوان وقمت بزيارة الأهرامات فى القاهرة أنا أيضاً من عشاق الحضارة والثقافة المصرية.

ثم تحدثوا عن بعض علماء الطب النفسي كعالم النفس الفرنسي كريستوف أندري الذي اشتهر خاصة باعتماده التأمل أسلوباً جديداً فى معالجة اضطرابات الاكتئاب، والفيلسوف السويسري ألكسندر جوليان الذي ظل طيلة طفولته وشبابه يتردد

على المراكز النفسية فى طفولته وانه كان يعاني من بعض الاضطرابات فى صغره، ثم تبادلوا الحديث عن العنف والسياسة فى الشرق الأوسط والربيع العربي، الاثنين يبحثون عن الحكمة رغم آفاقهم المعرفية المختلفة ومشاربهم الفكرية المتنوعة وتجاربهم الحياتية المتباينة.

******

وصل يونس الي صالة الوصول بعد تخطي قائمة الانتظار واستلام الأمتعة وغيرها من الإجراءات وعند خروجه من صالة الوصل وجد الناس يرحبون القادمون ووجد فى انتظاره أمه السيدة كريمان وخالته فريدة وابنها اسامه الذي هو صديق دراسته منذ الطفولة، وقد استقبلوه بالأحضان وهم والقبلات.

أمه أرملة فى الخمسين من عمرها ويونس فى السابعة والعشرون من عمره فالترمل فترة شديدة على المرأة بل وعلى أهلها، وتعمل هي مدرسة للغة الانجليزية وكانت متزوجه من الأستاذ نبيل والد يونس، الذي كان يعمل هو الآخر مدرساً للغة العربية وكان يعولها ويساعدها على الإحساس ببهجة الحياة وقد استمرت على هذا الحال.

التفت يونس الي امه ثم قال:

اعلم أن الانتظار مؤلم يا أمي.

فقاطعته مبتسمةً:

والآن صار الانتظار طيباً ورائعاً انها أسعد لحظات عندي فأنت لا تعلم ما كان بي من ألم لفراقك يا يونس انه جرح البعد عني،

اشتقت لرؤيتك ولملامحك وكنت دائما ادعو الله لك فى كل صلاه.

نعم يا امي انا اعلم. لقد اشتقت لكي يا أمي ولكن ما كان يخفف عني هو حبي لاستكمال دراستي وها انا الحمد الله حصلت على درجة الدكتوراه.

حمد الله على سلامتك يا يونس.

التفت يونس الي خالته فريدة ثم قال:

كيف حالك يا خالتي وكيف حال عمي ممدوح.

الحمد الله كلنا بخير أنت لا تعلم فهناك أشياء كثيرة تغيرت طوال هذه الأيام.

ماذا حدث ولماذا تبكين؟

خيراً ان شاء الله. كم اشتقت لك يا يونس، انت تعلم أنك عندي مثل أسامة.

ودنت أمه منه واحتضنته بشده والقت برأسها فوق كتفه تذرف هي الأخرى دموع الفرحة، وعانقه اسامه بشده ودمعة عيناه ايضاً فرحاً بعودته سالماً طيباً.

نظر اسامه الي امه والي خالته معاتباً على طول وقفتهما، ثم قال لهم مازحاً:

أعتقد بانك تشعرين الآن ببعض الراحة يا خالتي، لقد رايتي ابنك دكتور يونس، بل ورأيت ضحكته الغائبة، التي ارتسمت على ملامحه.

من هذه الناحية لا تقلق. هي. هي.

هيا. آلا ترغبون فى العودة الي البيت.

ذهب اسامه لإحضار سيارته، وحينما جاء بها، ركب يونس بجواره، بينما جلست خالته بجوار أمه فى الكرسي الخلفي، واستسلم يونس للنوم وأيضا خالته، بينما أمه لم يغمض لها جفن، تفكر دائماً فى يونس ومستقبله وفي وحدته وتبكي بصمت على من هم فى القبور وعلى من هم أحياء بأجسامهم وقلوبهم فى قبور، انتبه لها يونس وقال لها، بعد ان نظر لها نظره مباشره، وكأنه يقرأ أفكارها متسائلاً:

- هل مازالت تتذكرين ما فعله عمي عادل يا امي؟

طأطأت الأم رأسها قليلاً مستغربة وهمست فى نفسها متسائلةً: كيف كشف ما يدور بخاطرها؟

- نعم يا يونس فقد كان كل شيء.

******

بدأت تتذكر أمه بعد إتمام حفل زواجها من نبيل فى عام ١٩٨٧م وقبل العام الذي رزقهما الله يونس وزينب.

تتذكر..

تتذكر البيت الجميل الأبيض ذو النافذة الخضراء والأشجار التي تحتضنه، انه انسجام اللون الأخضر مع اللون الأبيض، أنه بيت زوجها نبيل الذي كان يلبس الجلباب المصري الجميل كانت بالطبع حياتها سعيدة، بيت كبير بطابقين له باب خشبي كبير ومدخل واسع فى حي كبير بالمدينة، أولاد يلعبون بالكرة

وملامحهم تنطق بالبراءة، اول الحي به متجر صغير مفتوح يقف فيه رجل مسن ذو لحية كثة يبيع الزيت والسكر والجبن وغيرها من أصناف البقالة ، يمكنك ان تري محل للحلاقة وبجانبه محلاً يعلق ملابس للأطفال وعباءات النساء وحجابهن، رائحة الطعام والتوابل فى الظهيرة أنه حي مصري أصيل، وفي نهاية الحي مسجد كبير أنيق ابيض اللون مزخرف بعناية والشيخ إبراهيم الذي يعرفه جميع افراد الحي شيخ ملتحي طويل القامه يلبس غطاء للرأس وجلباب ابيض وكان يضع كفية علي جانبي رأسه ويؤذن للصلاة داخل المسجد أمام المكبر وكان المسجد ينعم بكثير من المصلين.

تتذكر حينما اتفقت مع زوجها فى بداية زواجهما ان تؤجل الانجاب لفترة حتى تتحسن أوضاعهما المادية خصوصاً ان عمرهما مناسباً ولكنها لم تبق على اتفاقها وحملت ولكن نبيل ظن منها بأنها أخلت بالاتفاق ولم يتقبل خبر حملها بفرح كما كانت تتوقع وتأملت كثيراً فى هذا وفكرت ان تتخلص من الحمل لولا خوفها من الله وكانت لحظة لا تنسي خاصة يوم الولادة وعندما ضمت أبنها يونس الي صدرها ، فهي كانت تحب دورها كزوجة وأم، فقد جمعت الحسنيين.

******

تتذكر فى أكتوبر ١٩٩٢م. عندما جلس يونس فى صالة البيت يوم ما وكانت الساعة الحائطية تشير الي التاسعة مساءً. كان هو فى الرابعة من عمره، كان يونس فى عينيه بريق ذكاء، وفي

وجهه حكاية خاصة لم تدركها أمه بعد، عزلته لم تكن تعني أنه لا يشعر بمن حوله، بل كان يشعر بكل شيء، ويرى كل التفاصيل دون أن يخرجها للآخرين وكانت أخته نائمة في غرفتها وأبيه خارج البيت، وفجأة بدأ متوتراً وعلى وجهه علامات الغضب وبدأ يصرخ ويزمجر وبدت عليه نوبات الهياج حاولت أمه تهدئته، ولكن لم تنجح في ذلك، لأنها لا تعلم ماذا كان يريد منها وبعد معاناة قام يونس وذهب إلى حجرته وأحضر حقيبة ألعابه الصغيرة وأخرج دمية منها ثم أعطاه لوالدته لكي تحملها، فحملتها أمام إصرار منه و رضخت له و لمطلبه فتعجبت وعندما ارادت وضعها في مكان آخر ظهر علي وجهه علامات الغضب مرة أخري.

بدأت بقراءة بعض آيات القرآن كي ترقيه، بدأ يصرخ ويزمجر ثم بدت بعد ذلك علية آثار الفرح والسرور ترتسم على وجهه عند سماع ما تقرأه، بداية لم تعرف أمه ما السبب وراء اهتمامه لهذا، ولكنه كان كثير التعلق بهذه الدمية التي جاءته من أحد أصدقاء أمه في مناسبة له، تعجبت لتعلقه بها كثيراً وقالت في نفسها: أن هذا ربما كان أمراً عرضياً لمرة واحدة ولكن الأمر ليس كذلك وقد تملكتها رعشة بكاء ولكنها تمالكت نفسها ولم تبكي، فما السبب وراء ما حدث؟ وما هو تناقض العواطف التي تنشأ في رحاب هذا القلب المعذب يونس، قد حامت أفكار أمه حول تصرفات ابنها الغريبة حيث انه لا يستقر اليها بفتح عينيه ليراها وكثرة انتقاله في البيت من مكان الي مكان لآخر

وبطريقة عشوائية أحياناً وشعرت شعوراً مبهماً بأن ثمة رسالة تنتظرها من وراء ما تراه ليونس، ثم قُرع الباب ونهضت الأم وفتحت الباب واذا بأحد جيرانها وصديقتها تدعي منال، جاءت لتقضي معها بضع دقائق وعندما رأت يونس يبكي تساءلت وعندما قصت عليها كريمان ما حدث شعرت بالخوف مما سمعت وظنت ان بهذه الدميه روحاً شريرة او بأن بها عملاً من السحر الأسود ونصحتها بالتخلص من تلك الدميه، واقتنعت الأم بالأمر علي الرغم انها لا تعتقد فى هذا، ولكن الأمر كان معقدا.

ذهبت منال الي والدها الشيخ لكي يساعد الطفل فقام الشيخ بزيارة المنزل واستقبله نبيل وقال له الشيخ قد يكون هناك أحد أراد إزائكم بهذه الدميه، وجلس أمام يونس، وقرأ بعض من آيات القران ولكن الزوجين لا يعتقدان فى هذا، وقالت كريمان فى نفسها: صحيح ان يونس قد بلغ أربعة سنوات ولم يتكلم حتى الآن ولكن هذا ليس له علاقة بأرواح شريرة او سحر او عمل كما تعتقد منال ووالدها الشيخ.

كريمان ذو ثقافة وفكر وتفهم واقعها ولكنها تعود وتقول فى نفسها أيضاً ان هناك طيف واسع يزخر به السحر والسحرة ولكن ليس فى بلادنا، ولم تكن تلك الأحداث هي الوحيدة ولكن كانت هي البداية وكانت تلك الفترة أكثر انتشاراً لأعمال السحر واستحضار أرواحاً شريرة قادرة علي قلب حياة المسحور، فهل حكايات ألف ليلة وليلة والقصص الأسطورية

وحكايتها العجيبة كانت لها التأثير فى أفكارهم؟ أم أن هناك شيء آخر؟

******

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة والنصف مساءً، ذهب نبيل الي فراشه بعد نوم الأولاد واستغرق فى النوم ويري فى منامه، انه فى وسط المبني الأحمر اللون الذي تحيطه الأشجار لم يكن هناك أحد يسير فى المكان وكانت السماء ممتلئة بالأمطار، الأمطار غزيرة مستمرة وتملئ ماء الأمطار المداخل المفتوحة من المبني، فى وسط المبني كان تابوت من الخشب الصندل، ومن خلف الأشجار بدأت حركة ما، وشيئاً فشيئاً برزت أشباح ملفوفة بالقماش الأبيض وكأنها مومياء. أخذت الأشباح تقترب من التابوت بحركة بطيئة إلى أن التفّت حوله، ثم انحني وفتح التابوت، لم يكن داخل التابوت سوى دمية من القماش، أغلقت الأشباح غطاء التابوت ثم أخذت تبتعد راجعة إلى مكانها خلف الأشجار إلى أن اختفت. التابوت ما زال وسط المبني، شيئاً فشيئاً بدأ غطاؤه يُفتح، من التابوت خرجت أبنته زينب واقفة فى ثوب أبيض شفاف، خرجت من التابوت ومشت مثل السائر فى النوم نحو جهة الأمطار إلى أن اختفت فيه، سُمع صوت ذئب عالي الوضوح، عواء مخيف، خلف الأشجار جاءت أصوات حركة بدأت تقترب، ظهر فارس علي ظهر حصان أبيض. أخذ الفارس يقترب من التابوت إلى أن وقف قربه. مدّ يده فيه ثم رفعها وبها ذهب، ثم مدّ يده فيه مرة ثانية وفتح التابوت فوجد به ألماس وأموال وذهب كثير. ابتعد الفارس مختفياً من حيث أتى. ثم ظهر

نبيل واتجه الي التابوت وإذا بالأشباح تظهر مرة أخري وبخطوات مخيفة وضعوه فى التابوت فتمدد فيه وأغلقوا عليه الغطاء بقوة وانصرفوا وجاء الفارس بحصانه ووضع حوله أسلاك شائكه، وطارت أوراق الأشجار وتساقط بعضها ووقف على التابوت هدهد وصرد له منقار قوي ومعقوف.

فزّنبيل من نومه خائفاً، كان العرق قد بلل ثيابه، أزاح الغطاء وجلس على حافة السرير بصمت لفترة ليست بالقصيرة، وكأنه يسمع آية قرانيه تتردد فى أذنه (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ) سورة الدخان، آية ٢٨.

نهض بتثاقل وخرج من غرفة النوم إلى غرفة الاستقبال، أشعل النور فى المصباح الكهربائي، وجلس على الأريكة، استيقظت زوجته كريمان قلقةً عليه وخرجت الي غرفة الاستقبال فوجدته يتأمل صور أبناءه على الحائط، وسألته ماذا حدث حتى تستيقظ فى هذا الوقت؟ فأجابها أنه أرق نوم ثم عادا الي فراشهما.

الفصل الثالث
آلام

استيقظت كريمان فى الساعة السادسة صباحاً، ذهبت لتحضر ما يكفي من وجبة الفطور. وان هي الا خمسة دقائق سمعت بكاء وصراخ ابنتها زينب فهي فى الثالثة من عمرها. استيقظ يونس كعادته وحده، لقد مر الوقت ولم تحضر الأم الفطور، ذهب الأب لمساعدتها. بعد أداء فريضة الصلاة، تناولوا الفطور وحمل زينب كي يداعبها ويحاول ان يطعمها ولكنها ترفض كعادتها، وبعد الانتهاء من الفطور، ذهب نبيل الي الحمام وخرج منه الي غرفته مجففاً يده فى منشفته، ثم بدل ملابسة ثم لبس ثيابه وخرج الي عمله بالمدرسة واصطحب معه يونس.

كانت كريمان إمراه جميلة ذات عينان واسعتان سمراوان بياضهما ناصعاً، شعرها ناعم طويل، رموشها طويلة، وجهها متوسط، لها غمازتان على الخدين وقد اضافت لها مزيداً من الجمال، وهي مثالاً عالياً للعفاف والأخلاق. ونبيل وسيماً ذو بشرة بيضاء مائلة الي الحمرا، ذو عينان واسعتان عسليتان وله لحية خفيفة، شعره متوسط النعومة، شخصية طيبة النفس.

******

في المدرسة، وخلال وقت الاستراحة بين الحصص المدرسية، بدأ بعض الطلاب السخرية من يونس لشعورهم أنه مختلف عنهم، وسمع أحد زملاءه يقول:

- الواد المتخلف قاعد هناك اهوه.

عبارة امتزجت معها ضحكات ساخرة متعالية من زملاء يونس فى المدرسة خلال وقت الاستراحة بين الحصص المدرسية يصاحبها اشارات اليه تثير غضبه وخوفه فى آن واحد، فهو لا

يدرك كيفية الدفاع عن نفسه أو حتى المواجهة لهؤلاء المستهزئين به، يتخذ من احدى زوايا ساحة المدرسة ركنًا يحاول الاختباء فيه من نظراتهم التي تلتهمه وتنقض عليه بوحشية تنهش فى قلبه، ثم وقع حادث عنف له من بعض الطلاب وتعرض للضرب من قبل أربعة طلاب مما ادي الي اصابته وجاءه اسامه مسرعاً مدافعاً عنه.

فالمشكلة تحدث فى لحظة بين الطلاب ودائماً ما تنتهي فور ظهور المشرف. ذهب المشرف الي والده الأستاذ نبيل لأخذه كما جرت العادة اليومية منه وكان وقتها آذان الظهر، فوجد ابنه ممزق الثياب وعليه علامات اعتداء وكدمات مختلفة.

نظر نبيل الي ابنه بتفحص ثم قال وهو ينظر الي المشرف: ان ما تعرض له ابني يونس شيء جسيم جداً.

انت تعلم ان هذا يحدث كل يوم وقد يكون له آثاراً نفسية عليه.

نعم. اعلم فهو لا يحب الحضور خوفاً من الاعتداء عليه.

الطلاب لا يدركون أيضًا ما يفعلون بزميلهم. يسبونه ويضربونه ظنًا منهم انه لا يحبهم او لا يريد اللعب معهم وهذا غير حقيقي.

يجب عليك تنبيه أولياء الأمور على ما يحدث من ابنائهم وتعنيفهم الشديد لأبني.

بالطبع سوف أُبلغ ما حدث إلى أولياء أمور الطلبة واعدك على عدم تكرار ذلك.

وبالفعل استطاع المشرف الإمساك بفاعلين هذا السلوك وتحدث معهم وشرح لهم حالة الطالب يونس. جاءت نبيل زميلته الأخصائية النفسية، وأوضحت أن هناك خطأ كبير فى وضع يونس هنا بالمدرسة وان هناك خطأ ايضاً فى فهم وتشخيص يونس ويجب الذهاب به الي طبيب نفسي للأطفال.

******

وفي الظهيرة خرج نبيل من المدرسة واصطحب معه يونس وتوجها الي البيت فدائماً ما يكون نبيل محملاً بمشاكل ليست من صنعه وقد تكون أكثر شدة وألماً من المشاكل التي يصنعها لنفسه وفي كل الحالات ليس هناك طريقاً أمامه سوي الصبر فهو الملاز والدواء الناجع لإطفاء نيران المشكلات وهو دائما يكرر فى نفسه " الصبر مفتاح الفرج " وفجأة سيارة بيضاء تقف امام نبيل وداخلها أخاه عادل وزوجته سميحة. نبيل وعادل شقيقان متشابهين لدرجة كبيرة فكلاهما له هذا الوجه المستطيل والعينان العسليتان الواسعتان وبشرة بيضاء ضاربة الي الاحمرار الا ان نبيل فى الثالثة والثلاثون من عمرة، يكبر أخاه بثلاثة أعوام ودونه طولاً على حين أن نبيل يمتاز بدقة فى قسمات الوجه أكسبته وضاءة ووسامة.

******

دخل نبيل الي بيته مصطحباً يونس فى يده، بينما صعد عادل وزوجته سميحة الي شقتهما، حينما دخلت سميحة شقتها اتجهت مسرعةً الي المطبخ لتجهيز ما يكفي لوجبة الغداء وفي المطبخ انتظرت للحظات حتى بدأ اناء الطعام يكون ساخناً بالدهن.

وضعت اللحم بعد أن قامت بتقطيعها وبعض التوابل اليابسة على اللحم ثم سكبت عليه بعض الصوص، تركت اللحم على النار ليغلي قليلاً. ثم بدأت بتخفيض النار إلى أقصى حد. بينما هي كانت منشغلة فى تجهيز الطعام توجه عادل إلى الحمّام، ووقف تحت دش الماء وفتحه على أشد قوة فيه وبقي هناك للحظات تحت وابل الماء. خرج عادل من حمامه وأكملت سميحة طهي الطعام.

حينما جاءت سميحة بصينية الطعام كان عادل متمددا على الأريكة محدّقاً إلى سقف صالة الشقة! وضعت الصينية على الأرض فنزل هو وجلس على البساط المفروش على إحدى جوانب الغرفة، وبدأ يأكل وهو ساهم النظرات، فسألته مستفسرة:

- هل حدث شيء ما؟

انتبه إلى سؤالها ونظر إليها وقال:

- كم تمنيت لو ان أخي نبيل باع الأرض وأعطاني المال الذي يساعد فى سفري الي إيطاليا.

- تحدث اليه مرة أخري ولكن لا تعلم يا عادل أين الخير فقد تضطر إلى العمل هناك فى وظائف لم تفكر بها من قبل، قد سمعت ان بعض المهاجرين الي إيطاليا يعملون فى أعمال شاقة.

- ولما لا تقولين قد تنفتح أمامي مجالات جديدة للعمل وفي وظيفة جيدة كنت أفكر أن أعمل بها. عندما قررت السفر أول ما تبادر فى ذهني ان نبيع قطعة الارض التي ورثناها من والدنا ولكن نبيل رفض هذا.

- عندما تجد الفرصة المناسبة تحدث معه مره اخري، فهو يحب لك الخير دائما، ولكنني أعتقد أنه قلق عليك من هول الهجرة الغير شرعية.

-الهجرة الغير شرعية! على كل حال سوف أتحدث معه مرة اخري.

- ولكن، لماذا تعود الي البيت بعد كل ليله سكر.

- كل ليله!

غضب عادل من حديثها معه، وظهر هذا فى تعبيرات وجه ولغة جسده فالغضب هو الشعور السائد سلوكياً له، وفوجئت هي بتحول حاله وبدأت تتحدث اليه بمشاعر مصحوبة بانفعالات مختلفة ممزوجة بالخوف وقالت:

- أنت دائماً تأتي متأخراً وأنا انتظرك كل يوم علي أحر من الجمر والظنون تسير بي شمالاً ويميناً حول سلامتك.

- كفي عن الحديث يا ثرثارة.

خرج عادل من المنزل غاضباً بعد أن أنهي غداءه. وحتماً لا يخلو بيتاً من المشكلات وهذه طبيعة الحياة. ولكن ماذا لو غضب الزوج من زوجته؟ هل يمكن أن يسلك مثلما ذات السلوك بحيث يترك البيت ويمضي خارجاً؟ الحقيقة أنه لا قوة يمكنها أن تجبر عادل علي ترك بيته إذا غضب بغض النظر عن طبيعة المشكلة. استقل عادل سيارته وطار الي صديقة حسين لاصطحابه الي مقهى فى وسط البلد، لكي يكملا السهرة حتى مطلع الفجر.

عادل شديد الانفعال، ويجيد اشعار الآخرين بالذنب بصرف النظر عن الاسباب الحقيقية للأمور ويشعر بضرورة الاسراع فى الهجوم على الاخرين قبل ان يباغتوه بالهجوم. فهو لا يثق بأحد ويركز دائماً على نقاشات متصيدة فهو ضيق الأفق ولا يتورع فى التعليق على أتفه الأخطاء ونجده ثائراً دائماً مع زوجته ومع الآخرين ويلجأ للعنف عند الكلام، على الرغم من انه يسعى الي ان يكون نموذجياً فى كافة الامور الا انه ينزعج من تذكير أحد له بأخطائه، وعنيد صاحب اراده حديديه يتشبث بأفكاره ويفرض رأيه بقسوة وعصبيه وتزمت واضح وكل ما يرغب به هو تنفيذ ما يطلبه بدون نقاش فقد عاش باحثاً عن السفر الي أوربا، بحثاً عن حياة أفضل دائماً. سميحة حينما تتدخل فى شؤون زوجها الخاصة والعامة وتقدم له النصيحة انما تريد أن تقول له أحبك لذلك اهتم بكل شؤونك. لكن عادل لا يعجبه ذلك فهو السيد الخبير بكل الأمور ويفهم النصائح من زوجته على انها تسلط ونوع من انواع الوصايا عليه.

******

تناول نبيل وأسرته وجبة الغداء ثم ذهب هو الي سريره فهو من الاشخاص المحافظين على عادات يومية ونمط حياة القيلولة والتي يعتقد أنها تعزز من قدرته على النوم إذا ذهب إلى السرير.

نظر نبيل الي زوجته وقال:

سوف أنام ساعات قليلة لأنني اشعر بالتعب.

لا باس لو كان لي ما كنت اسمح لحظة بشقائك.

لا بأس يا وجه الرضا.

كريمان تخصص وقتها وجهدها لأبنائها بعد منحها اجازه رعاية الأمومة بنصف المرتب، فهي كل صباح تتولي خدمات المنزل من طبخ وتنظيف واشراف على كل شيء بالمنزل. والاحترام بينهما سر من أسرار سعادتهم الزوجية واستمرارها وهناك دائماً شعور بالرضا بينهما والمشاركة فى المشاعر المفرحة والمحزنة، فحياتهما الزوجية مبنية على التفاهم، علاقتهما قوية دافئة مليئة بالمشاعر الطيبة والأحاسيس الجميلة. يحب الأبناء عادة ان يلعبون معاً وأكثر حماساً عندما يشاركهم الأب أو الأم اللعب معهما ولكن يونس يحب دائماً ان يلعب وحده. وتلعب زينب بالدمى وتتكون ألعابها عادة من عرائس وخيام مصغرة تلعب بها بالبيت فهي من أكثر الألعاب الجميلة التي تجذبها نظراً لنعومتها ورقتها فهي ألعاب جميلة وممتعة لها.

******

عندما استيقظ نبيل من نومة، سمع يونس وهو يرتل القرآن بل ويلتزم بأحكامه، فقد لاحظ من قبل اهتمامه بسماع القرآن من إذاعة القرآن الكريم فشجعه على ذلك وتابعه أولا بأول ولم يتوقع ان يصل بحفظه هذا الي المستوي الجيد، كان النطق عنده ليس جيداً وابتدأ النطق والتلفظ بآيات القرآن الكريم وسمعته امه ايضاً. ولم يخطر ببالهما أبداً أن يتمكن يونس من حفظ القرآن الكريم قبل أن يكمل عامه الخامس. وهي أول المؤشرات على ذاكرة يونس القوية بل وحالة الولع والشغف والتركيز الشديد

وعاشت الاسرة فى سعادة كبيرة غامرة بل ولاحظوا السعادة التي ترتسم على وجه يونس عند سماعه للقرآن وبصوت الشيخ المنشاوي تحديداً.

******

وفي ذات اليوم فى الساعة السابعة مساءً، ذهب نبيل الي الطبيب النفسي مصطحباً معه طفله يونس، حين وصلا وجد نبيل أن أمامهما صفاً من المرضي جالسون على مقاعد فى صالة العيادة، وكان هناك أطفال من ذوي الإعاقة مع أمهاتهم وفتاتان فى سن المراهقة وآخرون ينتظرون دورهم، سلم نبيل الأوراق للسكرتيرة التي تدير عمل الطبيب. حينما جاء دورهما ودخلا غرفة الطبيب، ارتبك يونس جدا. كان الطبيب وحده فى الغرفة، انتبه الطبيب لارتباك يونس، فرحب به مبتسماً ورحب بوالده أيضاً وبدأ فى تشخيص حالته، ثم قال له:

- أعرف إنك مليء بأسئلة تخص الوضع الصحي ليونس.

- نعم دكتور.

- لا تشغل بالك أستاذ نبيل بالآراء التي يقولها الناس عن يونس، وإن كانت فى ظاهرها مختلفة، ولكن هناك تقارب شديد بين آرائهم. فهو لديه اضطراب وجداني ويأتي له فى شكل حالة من العزلة.

كان نبيل متعجباً من كلام الطبيب فقال له مستفهماً:

- ما هو هذا الاضطراب يا دكتور، أنا لا أفهمه؟

- هو أحد الاضطرابات التي يكون لدي الطفل عجز فى مجالات التواصل والتعرف على المشاعر والتعبير عما فى داخله.

- انا قلق عليه يا دكتور.

-لا تقلقل بشأن يونس فإنه طفل ذكي وقد يكون ذكاءه أعلي من أقرانه العاديين.

- حقاً.

- بالتأكيد.

وقبل أن يخرجا من غرفة الطبيب، أسرد له بعص النصائح حتى يكون يونس متهيئاً نفسياً فى الذهاب الي مدرسته، كما أسدي له بعض النصائح الخاصة بعدم تناول أنواع مختلفة من الأغذية واستبدالها ببعض الأنواع الصحية له.

******

قرر نبيل نقل يونس الي مدرسة أخري فهو يعرف أنه بحاجه الي مدرسة تعمل بنظام تعليمي مختلف. فيونس لا يدرك المشاعر مثل الغضب والحزن والسعادة وقد تأخر فى النطق عن الأطفال العاديين، ولكن لا يعاني من الانطوائية بنفس الحدة الموجودة عند الأطفال المصابين بهذا الاضطراب ولم يكن حينها لديه أبداً القدرة على قراءة وجوه الآخرين أو معرفة حالتهم المزاجية. هل تتخيل أن كل إنسان منا يعاني شكلاً من أشكال هذا الاضطراب؟

******

مر أسبوعين وفي مساء يوم ما، وبعد تناول وجبة العشاء، جلس يونس يشاهد بعض أفلام الكرتون التي غالباً ما تتضمن بطل خارق أو طفل ذكي أو رياضي بارع او أميرة جميلة او فارسة رقيقة فيونس يفرح كثيراً بتلك الأفلام فهي رسوم متحركة جميلة تلمس قلبه بأحداثها وبمغامرتها وتجعله مشدوداً لها حلقة بعد حلقه، فهو يعتاد على مشاهدة التلفاز بكثرة، بينما زينب تحمل بحب دميتها المصنوعة من القطن والقماش فى إحدى غرف البيت فهي من الألعاب المحببة لها، واحياناً ما ينشب شجار بينهما ويأخذ احياناً منحني تصاعدياً ويصعب إيقافه بعض الأحيان خاصة ان يونس يتعلق ببعض الأشياء ويستحيل اخذها منه بسهولة لأنه دائماً يبدأ بالصراخ الشديد والغضب ولحل تلك المشكلة تبدأ زينب بالانسحاب من المواجهة حتى يبدأ اللعب بشكل هادئ.

كانت كريمان تريد أن تنهي هذا اللعب فقالت لهما مبتسمةً أول الأمر:

- ها. قد حان وقت النوم يا أولاد.
- اتركيني يا أمي ألعب.

تنادي عليهما الأم فى صراخ حاد:

- يونس. زينب.
- حاضر يا أمي.
- ها. سوف اقرأ لكما قصة جميلة قبل النوم.

وذهبا الطفلان إلى غرفة نومهما بعد التجول يميناً ويساراً فى المنزل.

- اغسل يدك يا يونس فهذا يجعلك تشعر بالراحة فى نومك.

- حاضر يا أمي.

- ساعديني يا أمي.

- هيا تخيلا انكما تتامان فى مكان سعيد فيه هواء منعش وزهور جميله.

كان يا ما كان فى احدى القرى البعيدة، القريبة من الغابة كان هناك ذئب جائع لم يذق طعم اللحم منذ أيام ويشعر بالجوع الشديد، أخذ يبحث فى الغابة عن حيوان يأكله لكنه كان منهك فلم يستطع اصطياد أي حيوان، فذهب للقرية لعله يجد بعض الطعام ليسد به جوعه، وهناك وجد كلبا سمين جدا وكان سعيد جدا وكان يجلس ويحرس منزل صاحبه، فكر الذئب بالانقضاض على الكلب والتهامه ولكن الكلب كان سمين جدا وضخم، فخاف الذئب من الانقضاض، اقترب منه وقال له صباح الخير ايها الكلب الوسيم فما اروعك كلب سمين وجميل، لابد إنك تأكل كثير جدا.

فرد الكلب بفخر قائلا: صباح الخير أيها الذئب شكرا لك، فهل تود الطعام مثلي والأكل الكثير وتكون بصحة جيدة، بدل ذلك الهزال والضعف فى جسدك.

فقال الذئب بحماس كبير، وكيف أكون مثلك أيها الكلب السمين قل لي، رد الكلب بفخر، لن تفعل شيء صعب فما عليك إلا أن تطارد اللصوص والمتسللين إلى منزل سيدك، وان ترضي سيدك وتتبعه باستمرار يا صديقي، وسيقدم لك كل فضلات

الطعام واللحوم وبعض المرح ولن يمنع عنك شيء، اخذ الذئب يتخيل السعادة التي سيكون فيها، بالكثير من الطعام والشراب واللعب والرحة ولا أحد يزعجه يأكل الكثير والكثير من بواقي الطعام لصاحبة، ثم شاهد الذئب عنق الكلب وكان خالي من الشعر تماما، فقال له، ما هذا ايها الكلب فى رقبتك لما هي خالية من الشعر، فقال الكلب، انها شيء ليس مهم ابدا فهي مكان الرباط الذي يقيدني به سيدي كما ترى امام المنزل.

قال الذئب هذا يعني بأنك لن تجري وقتما شئت فرد الكلب لا، ولكن لا يهم اجري عندما يريد سيدي الجري ايها الذئب الهزيل، وهنا عاد الذئب للخلف بسرعة وركض مسرعا وهو يقول: لا ان الحرية شيء مهم جدا ايها الكلب السمين ولن استبدل حريتي من اجل بواقي الطعام فالجوع أفضل بكثير من الشبع مع عدم الحرية والقيد، وبعدها ركض الذئب بعيدا عن الكلب عائدا للغابة ليبحث عن أي طعام يسد به جوعه.

******

يجلس عادل مع أصحابه فى المقهى على مائدة متقابلين، واجتاحته موجه كرم عاتية فينادي النادل ويطلب لأصحابه القهوة والنارجيلة ويستمتعون باللعب والحظ وقرقرة النارجيلة.

- هلم يا صديقي نجرب حظنا.
- ماذا نفعل؟
- نجرب حظنا. نلعب الكومي.
- ليس عندي من المال ما يكفي.

- انا عندي.

ونهض الرفاق وأقبلوا نحو اللعب بلا تردد والطمع يلعب بقلوبهم جميعاً. ومع مرور الوقت ومع اعتقاد عادل ان يومه هذا ما ضاع هدراً، ودع رفاقه وعاد الي البيت مخموراً.

******

استيقظ نبيل قبل طلوع الشمس لأداء صلاه الفجر، وسمع صوت مزعج لسيارة تقف امام البيت فظن انه عادل، ثم فتح الباب مسرعاً ليقابله فهو يعرف سلوكه وقابله عادل علي درج المنزل وصعدا سوياً الي شقة عادل وبدأ معه الحديث فدائماً يشعر نبيل ان علية النصيحة له دائماً، ولا ييأس من الكلام الطيب والأسلوب الحسن اليه.

التفت اليه نبيل وهو يحمله زراعه وقال له بلهجة حزينة:

- عادل.

- نعم. خير يا نبيل، ماذا تريد؟

حدق نبيل فى وجهه وتحدث اليه من دون اذي ومن دون عنف فقال:

- أريد لك الخير. ألم تبادر بالتوبة عن السهر مع رفاق السوء؟

نظرت عادل محدقاً فى وجه أخيه وكأنه لا يراه ولكنه يقرأ ما يدور فى نفسه فقال له:

- كنت جالساً مع صديقي محمود.

- أعلم هذا. ولكنك مخمور وسكران.

- لا.... أنا...

- أنت غير قادر علي الوقوف والتحدث معي. الي متي تظل على هذه الحالة؟

- أية حالة تقصد؟

- يجب عليك أن تحذر من هذا.

- اعتذر لك، ولكن هذا ليس كل يوم.

نظر اليه نبيل وهو لا يزال يحمله، ثم قال له بهدوء شديد:

- نعم ولكن يجب ان تعلم انها من أقبح الكبار ويجب عليك ان تحذرها وتبتعد عنها مطلقاً. هيا أدخل الي الشقة الآن، وسوف نكمل حديثنا غداً بمشية الله فقد طلعت الشمس.

تركه نبيل على باب شقته وانصرف، ثم قرع عادل الباب، فتحت زوجته الباب على مصراعيه وتركته ولم تتحدث إليه فهي تعرف حالته.

- مساء الخير.

نظرت اليه سميحة وقالت له بغضب مكتوم ممزوج بنبرة مشبعة بالنعاس.

- قل صباح الخير. نحن الأن الساعة الخامسة صباحاً. أين كنت إلى هذا الوقت المتأخر من الليل؟

- أين يمكن أن أكون؟ مع أصدقائي طبعاً.

ثم أندفع إلى الأريكة ملقياً نفسه بتعب عليها سائلاً.

- هل لدينا ما يؤكل. أنا جائع؟

- يوجد لدينا جبن وخبز.

لم يجبها عادل بشيء وإنما نهض متوجها إلى جهة المطبخ، فعلقت مستاءة:

- يعني أما كان بالإمكان أن تأتي قبل هذا الوقت، تتركني وحدي وتذهب للسهر خارج البيت؟

لم يعلق على كلامها، فواصلت:

- الصبح الساعة العاشرة يجب أن نكون عند الطبيبة النسائية

نظر إليها للحظات وقال:

- ولماذا يجب حضوري معك؟

- وكيف اذهب وحدي.

- نتحدث عن هذا صباحاً.

- صباحاً؟!

نظرت إليه بغضب، أما هو فتجاهل نظراتها منشغلاً عنها فلم يكن أمامها سوى أن تتجه إلى غرفة النوم لتلقي بنفسها على السرير والدموع تترقرق فى مقلتيها.

******

في الساعة التاسعة صباحاً، استيقظت سميحة لتذهب الي الطبيبة النسائية وحاولت مع عادل كي يستيقظ ولكنه غارقاً فى النوم. خرجت مسرعةً من المنزل، واستوقفت سيارة للأجرة وركبت حتى تلحق موعد طبيبتها. الطبيبة التي تراجعها سميحة

لديها عيادة مشتركة مع طبيب مختص بأمراض النساء أيضا وحينما دخلت العيادة سلمت على السكرتيرة التي تدير عمل الطبيبين، ثم قالت لها السكرتيرة: ان الطبيبة نادية ليست بعافيه جيدة وستتأخر لأسبوع ويمكن للطبيب هشام أن يكشف على حالتك الصحية، ارتعبت من الفكرة لكنها التفتت إلى الصالة، فوجدت عدداً من النساء الحوامل وبعض الفتيات فجلست بارتباك.

حينما جاء دورها ودخلت غرفة الطبيب ارتبكت جدا، كان الطبيب وحده فى الغرفة لأن مساعدته الشابة قد خرجت مع المرأة التي سبقتها. انتبه الطبيب لارتباكها فرحب بها مبتسماً وأشار إليها أن تذهب خلف الحاجز الموجود فى الغرفة لتخفف من ثيابها أحست بالخجل، لكنه أراد أن يشعرها بأن الأمر طبيعي جدا فأنشغل بإعداد ورقة خاصة بها، لم ينتبه إلى أنها لم تتحرك من مكانها، وحينما رفع رأسه وشاهدها ابتسم وتحدث اليها بأن تذهب إلى خلف الحاجز وطلب منها بأن تخفف ثيابها هناك، حينها دخلت الممرضة مبتسمة، تحدث الطبيب معها وتحدثت الممرضة إليها بأن تنهض وتأتي معها خلف الحاجز حتى يمكن للطبيب أن يفحصها. كان الطبيب منشغلاً بارتداء الكفوف الشفافة الواقية، حينما التفت إليها وجد أنها ركضت خجلةً وصعدت السرير ثم تمددت عليه وسحبت الغطاء الأبيض الخفيف لتغطي جسدها إلي الصدر، ثم سألها الطبيب:

- ما الذي تشعرين به؟

- انا أتابع مع الطبيبة نادية، وقالت لي السكرتيرة انها بعافية وأنا متزوجة منذ عامين ولم يرزقنا الله بالأبناء حتى الآن.

- نعم. على كل حال سوف نطمئن عليك.

أنتهى الطبيب من الفحص ونزع كفوفه الشفافة ليلقيها فى علبة من الصفيح مخصصة لها وقامت هي وتحدثت إليها المرضة بعد أن أعادت وضع الكرسي لكي تجلس ويتحدث معها الطبيب.

******

حينما خرجت سميحة إلى الشارع أحست بأنها حزينة، وأن مزاجها ليس أفضل من قبل، ثم أخذت تفكر وتسأل نفسها: لماذا لم أنجب حتى الآن؟ علماً بأنها تتابع الفحص منذ أكثر من عام مع الدكتورة نادية. مرت بشاطئ النيل الذي يفصل الشارع الذي تقع فيه عيادة الطبيب عن السوق الكبيرة للمدينة رأت عددا من الأطفال يلعبون دخلت السوق ذهبت مباشرة إلى الصيدلية وهي تحمل الوصفة التي كتبها لها الطبيب ثم دخلت إلى أحد المحلات الكبيرة المختصة بالمواد الغذائية اشترت بعض الفواكه والخضار ووضعتها بأكياس النايلون وحينما عادت إلى البيت وجدت بأن زوجها لا يزال غارقاً فى النوم، ثم دقائق واستيقظ هو من نومه، ثم قال لها مستفسراً:

- ها. ماذا قالت لك الطبيبة؟

فلم تجيبه سميحة ودخلت غرفتها، نهض ودخل خلفها مسرعاً وبدأ بينهما الشجار فقد سئمت العيش معه فهو على هذه الحالة طيلة زواجهما.

نظر إليها معاتباً على طريقة كلامها معه، فقال لها غاضبا:

- لماذا تتحدثين معي بهذا الأسلوب؟

نظرت إليه وقالت بحزن متسائلةً:

- لماذا لم تأتي معي؟ أليست لك رغبة فى أن أُنجب إم ان الأمر يعنيني وحدي؟

- أنت تعرفين كم تمنيت أن يرزقنا الله بالأبناء.

- كيف يرزقنا الله بالأبناء وأنت على هذه الحالة؟

انتبه عادل الي أنه ارتكب حماقة ولكنه فى الوقت نفسه غضب غضباً، وبعد شجار استمر لبعض الوقت، قالت هي له:

- طلقني.

قالت ذلك، ثم قامت فجأة وكأنها أرادت منع الدموع من أن تنهمر من عينيها، حينها نظر هو اليها ولم يقل شيئاً، وعند باب غرفة النوم التفتت إليه وقالت مرة أخري:

- قولت لك طلقني.

- انت طالق.

وخرجت من غرفتها خارجةً من شقتها قاصدةً بيت والدها، وحكت له ما حدث بينهما من شجار وأنها يئست من النصح له.

******

وفي مساء ذات اليوم، جاء العم حسن الي بيت نبيل بملزمة أوراق خاصة بعقود ملكية الأرض الموروثة، فبعد أن قرع الباب وفتحت له السيدة كريمان تبادل التحية معهما، ثم دخل وجلس على

كرسي قرب الطاولة القريبة من مكتبة الصالة، كان يحمل معه ملزمة الأوراق التي وضعها أمامه على الطاولة حينما جلس، قرأ نبيل صفحة الغلاف التي تحمل تفاصيل ملكية مساحة الأرض والبيت الموروثة من أبيه المهدي عبد الرزاق مصطفي والده.

صالة الشقة واسعة، جدرانها مطلية بورق أبيض يميل إلى الوردي وجدرانها عارية، إلا من لوحة صغيرة من القماش معلقة بخيط متصل بمسمارين صغيرين على الجدار مكتوب عليها آية قرآنية ويقابلها لوحة فنية مرسومة على الحائط، وبها مكتبة تضم كتباً كثيرة باللغة العربية وكتباً اسلامية وبعض القواميس الإنكليزية. هم نبيل بأخذ الملزمة مرة أخري وجلس يتصفح أوراقها ثم لحظات وجاءت كريمان بضيافة للعم حسن وبعد انتهاء نبيل من قراءة الملزمة، هم العم حسن مستأذناً بالخروج.

******

الفصل الرابع
أهـــول المـــوت

وفي صباح اليوم التالي استيقظ نبيل وأسرته كعادتهم كل صباح. واجتمعوا بعد ذلك حول المائدة ثم تناولوا الفطور وحمل الأب زينب كي يداعبها ويحاول ان يطعمها ولكنها ترفض، وبعد الانتهاء من الفطور، ذهب نبيل الي الحمام وخرج منه الي غرفته مجففاً يده فى منشفته، ثم بدل ملابسة ونظر الي كريمان نظرة استحسان فوجدها محزونه كأنها كبرت وشاخت، ثم ذهب الي المدرسة ولم يذهب معه يونس، ثم مر بصره عليهم قبل الخروج وألقي عليهم التحية.

******

عندما دخل نبيل المدرسة وجد المدير ومساعديه، فألقي عليهم التحية، ثم اتجه الي غرفة المدرسين، وجلس مع زملائه وتبادلوا الحديث ثم ذهبوا للوقوف بطابور المدرسة وبعد تحية العلم ذهبوا الي فصول الدراسة وفي منتصف الحصة الثالثة شعر نبيل بالتعب، ولكنه قال فى نفسه: ربما انه تعب وارهاق من العمل أو قد يكون دون سبب واضح، ولكن اشتد عليه التعب فخرج وسقط فى الردهة الطويلة التي تُفتح على فصول الدراسة وخرج زميله الأستاذ جعفر للإلحاق به، وتبعه الزملاء فى خطوات سريعة ولم يطمئن قلبهم لهذا وبدء صياح عال من البعض يقول:

- لقد سقط نبيل. الإسعاف. الإسعاف. الإسعاف.

******

وذهبوا به الي المستشفى وهو يكافح من أجل استنشاق بعض الهواء وتضاعفت حالته حتى باتت تهدد حياته وكل نفس كان

يأخذه لا يكفيه وكأن أثقالاً فى رئتيه لن تتزحزح ولفظ أنفاسه الأخيرة قبل وصولة الي المستشفى وبعد إجراء الفحوصات التي تمت له تأكد الطبيب بأنه فارق الحياة وأبلغت المستشفى أخيه عادل.

******

لا تدري كريمان كم مضى من الوقت وهي جالسةً على الأريكة تنتظر زوجها نبيل، لكنها نظرت إلى الساعة الحائطية التي كانت تشير إلى الثالثة عصراً. إذنً تأخر نبيل وليست بعادته. حينها أحست بالخوف من فقدان شيء ثمين. أنصتت جيداً فسمعت صوت أقدام عادل تأتي من درج البيت. لا تدري لم تشعر بالراحة، فخرجت مسرعة فاتحةً الباب وقد أبلغها عادل بما حدث لزوجها نبيل، أحست بجسدها ثقيلاً، وتدفّقت لديها العديد من المشاعر المختلطة والتي جعلتها تشعر بالخسارة وجهشها البكاء وقد هزها الحزن والخوف والذهول والانكار وفجأة أغشي عليها من الصدمة، وحينما افاقت اغرقت عيناها بالدموع، ثم اتجهت الي المستسقي مسرعةً فى سيارة عادل، وهي فى طريقها ومعها أبناءها، همست فى نفسها: كيف؟ لقد ذهب الي عمله فى صحة جيدة وهو يتأهب للخروج الي العمل؟ وعندما وصلت الي المستشفى قال لها الطبيب:

- أرجو أن تتحملي الصدمة.

وتنظر كريمان الي أبناءها والي اهل زوجها كالمستغيثة وقالت:

- كيف مات نبيل؟

فهز الحاضرون رؤوسهم واجمين يتمتمون والبعض يقول:

- لا ندري.

- لا أستطيع أن أتصور، لقد تناول فطوره معنا وذهب الي عمله بصحة جيدة. لا أدري كيف وقع هذا؟

وبدأت تتذكر الصباح القريب بتفاصيله. وتقول فى دهشة وحزن:

- كيف لي أن أفهم ما يحدث؟ أيموت الانسان وهو بصحة جيدة؟ أيموت الانسان وهو يأكل ويضحك؟ لا أصدق. لا أستطيع ان أصدق.

انتبهت الي أبناءها وهي تجذبهم من ذراعهم اليها وجهشهما البكاء وهزهما الحزن حتى الأعماق ووقف الأبناء الي جثت ابيهم فى جو من الخوف والذهول والانكار، وأمهم تقف حيال الموت محتجة ثائره وفي نفس الوقت خائفةً يائسةً وتقول فى نفسها: ليس هذا زوجي، ويقول يونس فى نفسه: لماذا يسمع ابي كل هذا البكاء دون ان يتحرك؟ وكلهم يبكون ولكن فى تسليم من لا حيلة لهم. وتقول الأبناء فى نفسهما: ألم يمشي أبي من قبل فى بيتنا؟ ليس هذا أبي لماذا لا يتحرك؟ وما هي هذه الحياة؟ واقترب العم حسن الي كريمان وقال لها: حسبك. خذي أولادك خارجاً، ولكنها لم تغادر الغرفة وتنظر الي جسد نبيل نظرة طويلة غائمة بالدموع والأولاد تشوفهم نظرة مروعة، فلم يكن أحد منهم قد رأي ميتاً من قبل هذه المرة، وركبهم الخوف والأسي ونفذ الي اعماقهم حزن قهار الي حيث لم تنفذ عاطفةً من قبل وينظر

الأولاد الي أبيهم وظنوا أن عين أبيهما ترائهما رغم الموت وبعث الجميع اليه بتحية قلبيه وتقهقروا الي الباب ثم غادروا الغرفة.

******

ذهب العم حسن الي البيت لكي يصطف بعض الكراسي، ووجد الأهل جالسين فى صمت وكآبة، ويتساءل الأهل والجيران:

- كيف مات نبيل؟

فأجاب العم حسن قائلاً وهو يقطب:

- مات فجأة.

وأذهل الجميع وبدأ البعض يقول لقد رأيته وهو ذاهب الي عمله، والآخر يقول لقد ألقى علينا التحية منذ ساعات، ويقول الآخر كان رحمة الله رحمة واسعه رجلاً عظيماً ويقول الآخر كان طيباً. واقترب موعد الجنازة واجتمع الأهل عند البيت لحضور الجنازة وتشييع الجثمان الي مثواه الأخير فى مقابر العائلة.

******

وفي مساء ذات اليوم، جلس الأهل عند باب البيت حيث اصطفت الكراسي الكثيرة وبدأ زملاء نبيل بالحضور للتعزية، ثم أقبل عليهم الناس وتهرول النساء الي الداخل وبعضهم يصرخ، وراح العم حسن يتحدث الي عادل فى صمت طويل وألفت الأفكار له ما يدري مصير أولاد نبيل بعد موته، ولم يداخله شك فى مصيرهما وسأل الله بقلبه أن يلقي ابن أخيه وهو على أحسن حال من مغفرة الله، اما عادل فكان فى حيرة من كرب الموت ولكنه لا يدعوا العقل الي التأمل والتفكير. وبعد الانتهاء من مراسم

الجنازة والتعزية، ذهب الجميع الي بيوتهم لتتحمل هي الصدمة وحدها.

******

وفي اليوم التالي، كانت الساعة العاشرة صباحاً حينما جاء الي بيت كريمان بعض الأقارب وآخرون للتعزية ولمواساتها، فبعض الأهل لم يتركوهم فى محنتهم فهم يعلمون أنهم مهمومين بما أصابهم. وجلست فريدة بجوار أختها كريمان، فهي تساندها بالجهد والنفس بل والمال أحياناً فهي تسعى جاهدةً لأن تخفف عنهم أحوالهم المعيشية وتقول لها:

- الله قدر هذا.
- الله كفيل به.
- لا نقول الا ما يرضي ربنا.
- انا لله وانا اليه راجعون.
- نسأل الله أن يمنّ عليه بالرحمة والمغفرة.

وتقول كريمان فى نفسها: مات نبيل! الي من ألتجأ بعدك. كان الصديق. كنت الصادق. لا أنتظر من أحد شيء. كنت الأخ القريب. كنت لا تعرف التعب ولا المرض، كيف مات؟ كنت المعلم الذي لا يمل من تعليم أبنائه، وإعطائهم النصائح المفيدة وكنت لا تكل من مرافقتهم أبداً.

******

وفي مساء ذات اليوم، جاء عادل والعم حسن لمواساة كريمان ولأخذ أوراق الأرض والبيت الذي كان أرثاً سابقاً لعادل ونبيل،

فقد احتفظ بها نبيل قبل وفاته فى مكتبة بيته، وكريمان على معرفة بمكان ملزمة الأوراق التي بها العقود.

وبعد مرور شهرين من وفاة نبيل أكتوبر عام ١٩٩٢ م. كان عادل عاطلاً عن العمل، مفلساً جائعاً فهمس فى نفسه: أنا أمتلك أرضاً وبيتاً ويكون حالي هكذا؟ لمعة الفرصة فى عينه لو باع نصيبه من هذا الارث وبدأ بتوسيع تجارته، فهو يمتلك عقلاً تجارياً ومشروعاً رابحاً، فقد كان عادل من أولئك الناس القادرون على اكتشاف الفرص الصغيرة التي من الممكن أن تتحول الي كبيرة بمرور الوقت، ولكن لا نظن أن عادل شخص ناجح علي الدوام فهو يرتكب أخطاء أخلاقية كثيرة.

******

وفي اليوم التالي فى الساعة السادسة والنصف مساءً، اتجه عادل لزيارة أبناء أخية، وليعرض على زوجة أخية فكرة بيع الأرض، فهم أيضاً فى حاجة الي المال. وحينما قرع الباب فتحت له كريمان باب الشقة فدخل خلفها، وما أن صارا فى صالة الشقة أسرع وجلس هو، داعياً إياها إلى الجلوس فهو لا يريد أي نوع من أنواع الضيافة، عادت وجلست قبالته وقد جلس هو على الأريكة خلف طاولتها، مبادراً الكلام، فقال:

- إنني بحاجة الي المال. وأنتم أيضاً.

ابتسمت كريمان، ثم فجأة ارتسمت علامات الحزن على وجهها الجميل، وقالت:

- نعم. فقد ساءت الأحوال بنا، والأبناء بحاجة الي الرعاية.

- لقد حصلت تقريباً على أعلي أسعار مناسبة لقطعة الأرض.

- لا بأس. ولكن أعتقد من الأفضل أن تمنح نفسك أسبوع أو أسبوعين حتى تتصل بشخص متخصص فى تجارة العقارات فقد يعطيك المعلومات الكافية عن السعر الأفضل واتجاهات الأسعار وما يجب عليك القيام بهم من خطوات للبيع.

- لقد قررت بيعها الي شخص من نفس المدينة أعرفه جيداً.

- لا بأس.

- ولكن سوف أحتاج منك توكيلاً بالبيع وخاصة أن هذه الإجراءات ضرورية للبيع ولأنك مسئولة عن حق أولادك وهذا يجعل عملية البيع آمنة وسهلة.

- لا بأس. سوف أذهب غداً لإصداره من مؤسسة التوثيق العقارية.

- وعند إصداره سوف أستطيع استكمال الإجراءات.

- عند اصدار التوكيل سوف أبلغك.

- يجب الأن أن أذهب لمقابلة المشتري، الحاج السعيد.

- الحاج السعيد الفضلي؟

- لا أنه الحاج السعيد البدوي، من تجار العقارات هنا بالمدينة.

- لا أعرفه.

- على كل حال سوف أذهب إلية وأتفق معه على إجراءات البيع.

******

في منتصف الليل كان عادل جالساً على المقهى مع أصحابه، يتبادلون الحديث ولكنه كان شارد الفكر فيما يشغله من مال لتحقيق ما يريده، فهو مرةً يفكر بالسفر الي أوربا ومرة أخري يفكر بتجارته وأنه يحمل عقلاً تجارياً لولا قلة المال، وخلال ما يفكر به عادل جاءهم صديق لأحد أصحابه فرحب به الجميع ولكن عادل لا يعرفه، ثم قال أحدهما:

- صديقي احمد وصل الأسبوع الماضي من إيطاليا.
- مرحباً. حمد الله على سلامتك.
- شكراً جزيلاً لكم جميعاً. أنا سعيد لرؤيتكم.
- كيف كانت الحياة معك هناك؟
- الحياة رائعة بالطبع.
- أقصد حياة العمل بها.
- كل إنسان فى روما....

فقاطعه عادل قائلاً:

- تقصد أنك تعمل فى روما.

- نعم. كل انسان فى روما إلا أقلية لا يعتد بها يعبد المال عبادة جنونية وبعض الناس يلعنون المال ويذمونه.

لم يعلق عادل كثيراً على كلامه وإنما سأله:

- هل هناك من يذم المال؟

صمت عادل لحظة ثم واصل قائلاً:

- انت تملك الشهد!

- الذين يأكلون الشهد ليس من يعمل عند صاحب عمل ما، ولكنهم رجال الأعمال الذين يستثمرون أموالهم فى التجارة أو الصناعة.

لم يعلق عادل علي كلامه ولكنه قال:

- طبعاً. طبعاً.

انتبه إلى حديثهما صديقة فنظر إليهما ساخراً:

- ها. كفي حديثاً عن روما، وكأنكم تطمئنون على أحوال العمال بعد تحسن أحوالهم بفضل منظمات العمالة هناك.

نظر صديقهما الي عادل وقال:

- أنت دائماً شغوفاً بالسفر للخارج والحياة الأوربية.

- أليست هي ذات المعيشية الأفضل، وظروف العمل الجيدة؟

- بلا.

- ان النموذج الأوروبي والحياة الاجتماعية بها هي التي دعت الي ما يوحد أوروبا، على النقيض من طريقة الحياة هنا أو بالدول العربية وحتى فى أمريكا.

- هل تريد الحصول على تأشيرة عمل الي إيطاليا؟

- نعم. أنها أمنيتي. هل تستطيع ان تساعدني فى هذا؟

- نعم. سوف أتحدث مع أحد الخبراء وأبلغك بموعد اكتمال استمارة التقديم لتتمكن من السفر.

- كم أتمنى هذا؟

شعر عادل فى تلك اللحظة أنه بدأ تجنب خيبة الأمل، وأن هناك مستقبل ينظره.

******

وقبل طلوع الشمس وصل عادل بسيارته الي منزلة كعادته ودخل شقته فكان الليل قد أرخي سدوله، وشملت الشقة كآبة وما يشبه الصمت، بينما ذهبت كريمان فى صباح هذا اليوم الي المؤسسة التوثيق العقارية والخاصة بإصدار التوكيلات الخاصة والرسمية، وحينما وصلت المؤسسة وجدت أحد موظفيها فألقت عليه التحية، ثم سألته:

- هل سيادتك الموظف المختص بالتوثيق وإجراء التوكيلات الخاصة بالبيع والشراء؟

نظر الموظف اليها وأشار بسبابته فى اتجاه مكتبه، وقال:

- لا. أنا أختص بتسجل الملكية والعقارات، ولكن اذهبي الي الأستاذ مسعود فهو المختص بهذا، هذا المكتب المقابل للردهة الأمامية.

- معذرةً يا فندم. أشكرك.

وحينما وصلت كريمان الي مكتب الموظف المختص بإصدار التوكيلات، ألقت علية التحية، ثم قالت متسائلةً:

- الأستاذ مسعود؟

- نعم أنا. هل أستطيع مساعدتك؟

- أريد اصدار توكيلاً رسمياً عام لبيع قطعة أرض لأرث من زوجي لي ولأبنائي.

- لا بأس. تفضلي بالجلوس.

- أشكرك يا فندم.

- للقسمة والفرز والتجنيب؟ أم اشهار الإرث؟

- نعم. أرث.

- تقصدين توكيلاً عام للبيع الي الغير؟

- نعم.

- أصل بطاقة الرقم القومي وتكون سارية يا مدام.

- نعم سارية يا فندم تفضل.

وحينما بدأ الأستاذ مسعود فى كتاب نص التوكيل كانت ملامحها تؤكد أنها تفكر فى شيء ما، ثم قالت مكررتاً اسمها:

كريمان محمود عبد المجيد بركات.

صمت الموظف للحظة ثم واصل، قائلاً:

- اسم الوكيل ووظيفته وعنوانه وجنسيته يا مدام كريمان.

- شقيق زوجي المرحوم نبيل.

- نعم. أريد اسمة كاملاً ووظيفته.

وبعد استكمال الإجراءات المطلوبة لإصدار التوكيل، انتظرت كريمان بعض الوقت فى صالة الانتظار الخاصة بالمؤسسة حتى تم الانتهاء من التصديقات والأختام اللازمة ثم جاء أحد الموظفين ينادي السيدة كريمان عبد المجيد حافظ.

اتجهت الي موظف التوثيق وقالت:

- أنا كريمان.

- تفضلي يا مدام.

- شكراً جزيلاً يا فندم.

******

خروج كريمان من مكتب التوثيق واستوقفت سيارة اجرة واتجهت بها إلى بيت اختها فريدة بعد أن نقدت السائق الأجرة، فقد تركت أبنائها فى رعايتها لتستطيع الذهاب الي مؤسسة الشهر العقاري، فوجئت بحضور والدها الحاج محمود، فقد جاء فى زيارة شقيقتها فريدة، ألقت عليهم التحية ومد لهم والدها يده بالتحية، ولم يقترب يونس منه ليصافحه وتملكته رعشة بالبكاء، وطلبت منه أمه أن يتمالك نفسه فسكت عن البكاء، وابتسم له جده وأشار له مرة اخري بالاقتراب ليصافحه، وسري الي جسده دفء وقالت له خالته برقه:

- أنت فى بيت خالتك وهذا جدك.

فأحني رأسه، ثم احتضنه جده سائلاً:

- تكلم، لماذا ترفض الكلام؟

فغمغم يونس ولم يجيب.

- أتعرف من أكون؟

- جدي.

- ما معني ذلك؟

- أبو أمي.

فنحي وجهه عنه قليلاً ونظر الي خالته، فقالت له فى دهشه ومستفهمةً:

- ألا تتذكر جدك يا يونس؟

- بلي. كان يحملني لأري السيارات من الشرفة.

قال له جده برقة.

- هل تتذكر أباك؟

- زرت قبره. وأجهش يونس فى البكاء ونحي جده وجهه عنه قليلاً ثم سأله:

- ما أسمك؟

- يونس.

- ثم ماذا؟

- يونس نبيل.

- ثم ماذا؟

- يونس نبيل المهدي.

- أعد أسمك.

- يونس نبيل المهدي.

- ماذا تحفظ من القرآن؟

وتلا عليه مما حفظ وقد حفظ كثيراً من القرآن.

- ما شاء اللّه.

- ألم تصلي؟

- بلا.

- احسنت يا يونس.

- هل تعرف لماذا نحفظ القرآن؟

- نعم. لفائدته فى إخضاع الجن.

فصاح جده مقهقهاً وقال:

- الجن!!

- نعم.

فضحكت أمه، وحكت لهم ما حدث معه والدمية. ولازال يونس يتذكر.

- ها يا يونس، هل رأيت الجن؟

نعم. يلعب معي بالبيت.

فقهقه الجميع، وقالت له أمه.

- وهل رأيته بعينك يا يونس؟

- لا.

- اذاً هذا غير حقيقي.

وحينما رجع ممدوح زوج السيدة فريدة مصطحباً أبناءه أسامه ولمياء. ألقي عليهم التحية وقالت له زوجته:

- لقد تأخرت اليوم، فظننت أن هناك شيء ما؟ سأصب لكم الطعام، فهو جاهز، بل وما زال ساخناً.

وفجأة أخذت كريمان قراراً مفاجئاً بالمغادرة وقامت فريدة من مكانها ولحقت بها! ركض ممدوح من غرفته الي الصالة ليلحق بهم هو ايضاً وقال:

- لابد أن نأكل سوياً.

- لا. لا. شكراً. أريد ان أذهب حتى تبدل زينب ثيابها.

- لابد ان نتناول الغذاء اليوم.

شعرت الطفلة لمياء بالغضب ثم قالت لخالتها:

- أريد ان ألعب مع زينب.

فابتسمت فريدة متسائلةً:

- لما لا؟

- أنها صديقتها وصديقة روحها الحميمة.

قال ممدوح بهدوء:

- ضعي الصينية على الطاولة هناك يا فريدة.

فهزت كريمان رأسها مستسلماتاً وقالت:

- بشرط ألا أتأخر كثيراً. وإلا خرجت من الطريق الذي منه جئت.

وقال ممدوح بمرح.

- منذ متي ونحن لم نأكل سوياً.

******

حينما عاد عادل كعادته متأخراً الي بيته منتصف الليل، وكان حريصاً على ألا يتناول أي مشروب كحولي فى تلك الأيام

وبدأ بإقناع نفسه بانه طالما هو قادر علي الامتناع فى هذه الأيام، فسيكون كل تفكيره سوياً ويتذكر دائماً نصائح أخية نبيل. كان نبيل رحمه الله يفهمه ويعرفه جيداً، على الرغم من أنه كان يستطيع ان يخدع قسماً كبيراً من الأهل والعائلة وكأنه صاحب خصال حسنة كالشهامة والمروءة أو كأنه رجل ذو مضمون جدي ويعمل فى عمل ناجح ودائماً ما يصدقه الناس.

دخل شقته وجلس فى الصالة ضغط على أحد الأزرار ليفتح التلفزيون، استمر لدقائق ينظر لشاشته التي أخذت تعرض مشاهد من تفاصيل أماكن لبعض الدول الأوربية، وضع مفاتيح سيارته على الطاولة التي أمامه ثم توجه إلى غرفته ليبدل ثيابه وهو يقول فى نفسه تلك الشقة التي دائماً يشوبها الكآبة، ثم اتجه الي زاوية المطبخ ليغلي الماء وليصنع لنفسه كوبا من القهوة، وحينما جلس على كرسي قرب الطاولة، سحب ملزمة الأوراق إليه بعد أن وضع الكوب جانبا وبدأ يقرأ تفاصيل الارث من قطعة الأرض ومساحة المنزل. ويقول فى نفسه: كيف اصنع كي أحصل على المال الكافي للسفر؟ بل وأفضل من هذا لو حصلت على مال يكفي لتجارة صغيرة مناسبة وبدأ يوسوس له شيطانه لإيصال الفكرة وتضليله بطريقة خفيّة وكأنّها همس فى الأذن، ولكنه يعتقد أن جميع الأفكار هي من عقليته البارعة، وبسبب ذكاءه وأن عنده القدرة على تحليل الأمور بطرقة جيدة وغالباً ما يتفق مع أفكار شيطانه وينفذوها.

******

أشرقت شمس الصباح الدافئة تداعب الخلق وهم متجهين إلى أعمالهم، بينما يجلس عادل داخل شقته يرسل نظره على الباب الخشبي ليجد فكرة استقبلها بابتسامة، وبدأ شيطانه يعرض خدماته له. ويقول له شيطانه: أنظر إلى أحمد الذي ينعم بالعيش فى ايطاليا، عنده كل شيء وأنت لا شيء. لماذا لا تبيع الأرض والمنزل معاً وتأخذ نصيبك منهما؟ وتعطي أبناء أخيك نصيبهم من الارث كاملاً. فأجاب فى نفسه بالإيجاب، وقد علت فى وجهه الدهشة عندما وجد فكرة صامتة لا يتحول عقله عنها واحترم الفكرة وفي عينيه نظرات شاردة وابتسامة وتملكته حالة من الحيرة ثم تبدلت الابتسامة إلى القلق فى آن واحد، وجحظت عيناه وانقطعت أنفاسه ثم سمعه شيطانه يقول: وقد أبدى المشتري إعجابه بالمنزل، وقد لاحظت ذلك عليه عند ضيافتي له، ثم أوي عادل إلى فراشه ولم يتركه شيطانه كأنه يقول ماذا أفعل له الآن؟ ثم بدأ يعقد على قافية رأسه وقد أتاه حلماً وهو نائم.

إذ كأنه فى رحلة سفر بعيدة وكأنه كان عجوزاً تخطي الستين من عمره ثم شاهد فى الطريق جثة كُتب عليها: "اعتني بي فنتجوا بسلام!" أما هو فقال: "لست اطلب سلامًا بل أريد مالًا" ثم رأي طفلًا جميلًا قام على قدميه يتوسل إليه، ولكنه كشيطان يحمل قوة عظيمة قد أراد قتل الطفل فلا يعلم أحد عنه شيءً ثم أختفي الطفل فجأة وفى سخرية منه ضرب الجثة بعصا يتكئ عليه فخرج منها مالاً كثيراً لا يحصيه فأخذ المال مسرعاً ووضعه فى حقيبة كبيرة وعند انتهاء رحلته ألقى الحقيبة أمام أبناءه

فسعدوا بها كثيراً وفجأة فتحوا الحقيبة فوجدوا بها ثعباناً ضخماً فلتهمهم جميعاً.

فز عادل من مرعوباً من هذا الكابوس، تثاءب طويلاً وهو يزيح الغطاء عن جسده وجلس فالفراش معتمداً بذراعيه على ساقية متقوساً تحت وطأة غم لاحت فى وجهه، ثم قال لنفسه بنبرة ناعسة خائفة: حلم غريب!!

******

وفي صباح ذات اليوم فى حدود الساعة التاسعة، ذهبت كريمان إلى إحدى المحلات الكبيرة المختصة بالمواد الغذائية لشراء بعض الفاكهة والخضار وبعد الانتهاء من تسوقها فى منصف النهار وقد كانت الشمس فى كبد السماء واشتد حرها عادت إلى المنزل فوجدت عادل مغادراً المنزل فبادلته التحية وأخبرته بأنها اتمت اصدار التوكيل حتى يتمكن هومن بيع نصيب أولادها من الأرض فذهبت واعطته إياه.

أخذ عادل مستند التوكيل وصعد مسرعاً الي شقته لإضافته الي باقي الأوراق. وقف ينظر الي الملزمة مبتسماً وكيف أنه بمرور الوقت صار صاحب أرض وبيت ويقول فى نفسه: سوف يكون هذا عالمي الجديد فكريمان أرملة ولم يكن لها رأي فى شئون البيع وكل شيء كان بيد أخي سابقاً رحمة الله.

لم يتأثر عادل بفقد أخية كثيراً ولم يفكر يوماً ماذا يصنع أبناء أخية بعد فقدهم لأبيهم؟ فهو يقضي معظم وقته مع رفقاء المقهى.

جلس فى غرفة النوم التي كان يعود اليها مرتبكاً وخائفاً وأحياناً كان يفزع من نومه نتيجة كوابيس تقبض على روحه وكأنه يخاف شيئاً ما، ثم بدأ يتذكر زوجته سميحة، وانه كان يتحدث معها كثيراً عن مستقبلهما وعن تأخرها فى الانجاب، وكم كانت حياتهما جافة وكم تمني هو أن يزينها بالأطفال؟ همس فى نفسه متسائلاً: أما كان علينا مراجعة الطبيب ومتابعته؟ لماذا كانت هناك مشاكل بيننا؟ وينكر فى نفسه أنه كان يستقبل مشاكلهما بغرابة ولم يعلق لها كثيراً على كلامها حينما تحدثه عن سبب عودته فى وقت متأخراً من الليل وهو ثملاً.

******

حينما دخلت كريمان الي شقتها اتجهت مسرعةً الي المطبخ كي تعد الغداء فقد تأخرت عن موعد تحضير الطعام فى هذا اليوم ،ولكن يونس يضبط وقته علي أي عادة يقوم بها يومياً رغم انه لا يعرف التوقيت المناسب ، كان يلعب فى غرفته مع أخته زينب ببعض الدمية حتى وصل موعد الغداء، وقد وصل أنفه روائح الطعام الطيبة ورائحة الرز الزكية وروائح البهارات المنبعثة من تشريب الدجاج الذي أعدته أمه وخرج من الغرفة التي كان يلعب فيها متجها إلى المطبخ، وسمعت أمه أصوات القدور والأطباق مضت خلفه إلى المطبخ وجدته قد صب لنفسه شيئاً من الرز فى طبق ثم طاح منه أرضاً وطاحت معه بعض أدوات المطبخ فأسرعت هي وأعدت له طبق آخر وصبت له مرقاً فى طبق آخر، ووضعت له صدور الدجاج لأنها تعرف أنه يحب صدور الدجاج ووضعت لأخته طبقً آخر وبه أفخاذ من الدجاج فهي تحبها ووضعت لنفسها ثم

أخذت الأطباق ووضعتهما فى صينية ونادت علي ابنتها كي تجلس معهما فهي تعرف أن يونس له بعض السلوكيات المندفعة حينما يحتاج شيء ما والتي دائماً ما يسبب لها بعض الاحراج خاصة عند ما تصحبه معها خارج البيت.

******

حينما جاء الليل جلست كريمان مع يونس لاستكمال دروسه، وبعدها بدأت بتجهيز الطعام كان يونس متمدداً على الأريكة محدّقاً إلى سقف الغرفة وضعت صينية الطعام على الأرض بينما جلست زينب ولم ينتبه لها يونس، فنادته أمه فجلس على البساط المفروش على إحدى جوانب الغرفة وبدأ يأكل وهو ساهم النظرات.

حينما جاء وقت النوم وآوي الأبناء الي فراشهم، وآوت هي الي فراشها، تري فى حلمها وكأنها فى غرفة واسعة وكانت جدرانها مطلية بورق أسود فى أقصى الغرفة سرير يغطيه غطاء أسود اللون، وثمة رجل شاب بثوب وردي يغط فى نوم عميق وجدران الغرفة عارية مفتوحة الي السماء وسرير امرأة شابة، وفجأة يدخل ذئب أسود كبير يقفز على السرير باتجاه الشاب النائم، فزت كريمان من نومها مرعوبة تحسست أولادها ونظرت إليهما وإلى الجدران ثم إلى صورة زوجها نبيل المعلقة بالحائط الذي أمامها، ثم الي مكتبته التي تضم كتبا كثيرة وكأنها تبحث عن شيء، استرخى وجهها حينما تأكدت بأن الأمر لم يكن سوى كابوس.

عادت الي نومها فأتها حلم آخر وكأن زوجها فى مكان عظيمٍ مع بعض الملوك، وكان كل منهم يفتخر بما لديه من أمور عجيبة وكان زوجها لديه طائر عجيب يرافقه باستمرار سأله أن يذهب ويحضر أي شيء، طار وجاء ببذرة صغيرة فى منقاره وقدمها للملوك فضحك الكل ساخرين اغتاظ زوجها وفجأة سقطت البذرة على الأرض فصارت الأرض أشجاراً من الفاكهة أكلوا منها الملوك وطار الطائر الي زوجها وحزن الملوك على ما فعلوه معه ولكن زوجها كان سعيداً فحمله ووضعه فى قفص ذهبي فى أعلي بوابة القصر.

استيقظت كريمان من نومها وتثاءبت طويلاً وعلى جسدها الغطاء وشعرت للحظات بأنها غير قادره على النهوض من الفراش وأحسّت أن رأسها يخلو من أية فكرة، بل إنها عاجزة على استعادة تفاصيل الكابوس كانت حنفية الماء تقطر بانتظام وصوت الساعة الحائطية تشير إلى الرابعة صباحاً مع صوت أذان الفجر من المسجد المجاور للبيت، وظلت كريمان مستلقية على السرير وملتفة بالبطانية وانتبهت إلى أن أحداث الكابوس جرت فى غرفة النوم، وعلى سريرها فخرجت الي غرفة الاستقبال بعد ان ألقت النظر علي أولادها حيث تمددت قليلاً على الأريكة فى صالة الشقة ثم نهضت بتكاسل الي صلاة الفجر.

كان الليل يبدو أزرق من وراء النافذة الزجاجية ونظرت كريمان نحو الباب الذي يفضي مباشرة إلى خارج الشقة حيث درج البناية الطوبى لم يقطع سكون تلك اللحظات إلا الإيقاع

المنتظم لقطرات الماء النازلة من الصنبور الصغير وصوت عقرب الساعة ، وذهبت الي المطبخ وفتحت الثلاجة وأخرجت قنينة الماء وشربت منها مباشرة وهي فى دربها إلى المطبخ ضبطت الحنفية التي كانت تقطر وضعت القنينة فى الثلاجة ثانية ثم توجهت إلى غرفة الاستقبال ثم عادت منها وهي تحمل ألبوما للصور توجهت إلى الصالة وجلست على الأريكة فى مكانها السابق تمددت و ادثرت تحت غطائها وبساقيها وبدأت تقلب صفحات الألبوم بانتظام فهي تشعر بالحزن و بالفراغ الكبير بعد وفاة زوجها نبيل. مر وقت على كريمان وهي تقلب صفحات الألبوم وتتذكر صورها مع زوجها ، فهذا الألبوم يحمل صوراً منذ كانا فى مرحلة خطبتهما وأخيراً ألقته قرب رأسها بعد أن شاهدت جميع الصور وبقيت لفترة تتأمل سقف صالة الشقة وتفكر فى زوجها لم يكن هناك سوى صوت الهواء الخارجي وشيئاً فشيئاً غرقت فى غفوة دون إرادة منها.

******

الفصل الخامس
ظلـــمـــات

بعد طلوع الشمس، استيقظت كريمان وذهبت الي غرفة أولادها ليستيقظا وحتى يستطيعا تناول الإفطار قبل الذهاب الي المدرسة، على الرغم من أن كريمان تضع لهما طعاماً دائماً فى صندوق صغير ليأكل كل منهما إذا أتيحت لهما الفرصة بالمدرسة، فقد التحقت زينب بنفس المدرسة التي التحق بها يونس فهي مدرسة تعمل بنظام الدمج التعليمي الذي يضم فصول لبعض الطلاب العاديين مع طلاب مختلفين عنهم فى القدرات الفكرية.

خرجت كريمان من بيتها مصطحبةً الأبناء، ومتجه الي المدرسة الجديدة، فهي قريبة من بيتها ومكان عملها وبعد أن دخلا الأبناء المدرسة، اتجهت هي الي عملها، فقد عادت كريمان الي عملها بعد مدة غياب طالت كثيراً وحينما وصلت الي باحة المدرسة، لمحت زميلها صلاح، الذي كان أشد إعجاباً بها قبل ان تتزوج من نبيل، كانت فى فستان أسود جميل ولكنها بلا زينة واضحة وكانت هالتان سوداوان تحيطان بعينيها من أثر الحزن كما يبدو وكانت تبدو متعبة ومنهكة جدا.

حينما نهض صلاح من مكانه متوجها إليها، ارتبك عند رؤيتها فلم يأمل رؤيتها ثانية، وأراد أن يصافحها باليد لكنها لم تدفع إليه يدها، وكانت على امتدادها مصافحة من بعيد لتوقفه على مسافة منها، أحس بأن التي تقف أمامه ليست هي نفسها التي كانت تتحدث اليه قبل زواجها وخاصة بعد اختفاءها المفاجئ ويتذكر صلاح الآن كل شيء فيتذكرها حينما عرفها ولأول مرة فى غرفة المعلمات كانت فى فستان أحمر وزينة واضحة، ثم

اتجهت هي الي الردهة الطويلة المتجه الي غرفة المعلمين، بينما تساءل صلاح فى نفسه: هل ثمة تحولاً ما طراً عليها؟ هل هذا بفعل مرض تعاني منه؟ هل بسبب فقدانها لزوجها؟ ولكن لماذا أحس بالارتباك عند رؤيتها؟ وحينما ذهبت فى اتجاه غرفة المعلمات، حاول أن يلحق بها صلاح ولكنها اسرعت الخطي، وجدت هي زميلاتها من المعلمات، عفاف وهند وسعاد، كن فى انتظارها بغرفة المعلمات، جالسات حول طاولة كبيرة يتحدثن، فبادلتهن التحية، وقالت لهن فى ابتسامة خفيفة:

- لقد اشتقت اليكم جميعاً.

- يا مرحبا يا مرحبا. لقد اشتقنا اليك يا كريمان واشتاق اليك تلاميذك. تفضلي بالجلوس معنا.

- أنا أعتذر عن غيابي الطويل عنكم، لكني كنتُ مضطرة لذلك، الآن قد توفي زوجي وحطمّني هذا الحدث كثيراً، لقد كان سندي فى الحياة.

حين جلست كريمان ظلت صامتة للحظات، كما ظل هن صامتون، لا يردن أن يقتحمن سكونها بالكلام، لكنها بعد فترة ليست بالطويلة بدأت بالكلام، أخرجت منديلاً حريرياً لتمسح دموعاً التي ترقرقت فى زوايا عينيها وتأثرن بهذا الحديث وحاولن أن يشاركن حزنها وتمتمن بكلمات تقليدية تُقال عادة فى مثل هذه المناسبات.

- البقاء فى حياتك، أشارككِ هذا المصاب الأليم، ولا أدري كيف أواسيك بهذا الفقدان الجلل.

- كيف حال يونس وزينب؟

- بخير والحمد الله. شكراً جزيلاً.

- لقد افتقدناكِ كثيراً، وظننا أنك لن تعودي هذه الأيام، لاسيما بعد وفاة زوجك.

صمتت كريمان للحظة ثم قالت:

- أنا أيضا افتقدتكن كثيراً، لقد مررت بلحظات شعرت فيها بحاجة كبيرة للحديث معكن، فأنا بقيت وحيدة فى هذا العالم، ولا أري الا أبنائي وأنتم تعلمن ان أمي قد رحلت عن عالمنا منذ سنين، وليس لدي أي أشقاء الا أختي فريدة.

بدأت الحصة الأولي وبدأ بعض المعلمين التوجه إلى غرف الدراسة، كما توجهت كريمان الي غرفة الدراسة وظل البعض جالساً الي الطاولة حتى موعد حصصهن. خرجت كريمان من غرفة المعلمين مجتازةً الممر الطويل، دخلت هي الي غرفة الدراسة، رحب بها الطلاب ورحبت بهم أيضاً ثم بدأت لهم الدرس.

******

حينما رن جرس الحصة الثالثة، خرجت كريمان من الفصل مسرعةً مجتازة الممر فى دقائق متجه الي مكتب السيد مدير المدرسة الأستاذ عوض كي تعتذر عن استكمال باقي حصصها هذا اليوم، حيث أنها على موعد بمدرسة أبناءها للتحدث الي معلمين ابنها يونس، فهو يحتاج منها متابعة مستمرة وقد حدد لها مدير المدرسة موعداً للمقابلة التشخيصية مع الفريق المتخصص من الأخصائيين والمعلمين الذين يتابعون الطلاب المدمجين، والذي

كان من بينهم يونس، فهي علي دراية كامله بأن تكامل دور الاسرة مع المدرسة والمعلمين سيحقق افضل النتائج والوصول بأبنائها إلى التعامل بشكل سليم، وسيكون خال من التنمر والمضايقات التي قد تحدث صراعات نفسية وسلوكية تؤثر على يونس خاصة.

حينما ذهبت كريمان الي مدرسة أبناءها، جلست فى غرفة اجتماع أولياء الأمور، وجاء يونس وكان متوتراً وكان يلتفت يميناً ويساراً، وينظر تارة إلى سقف الغرفة، وبعد جلوسه معهم قليلاً رفض الجلوس وظل واقفاً اثناء المقابلة مبدي ضيقة من هذا المكان. كان ينظر إلى الباب المغلق ويذهب اليه، وكان المعلمين يحاولون تهدئته. ولكن سرعان ما ينظر إلى الباب مبدي رغبته فى الخروج من ذلك المكان الغير موجود فى ذاكرته. وقال لهم أريد الذهاب إلى دورة المياه فهي حيلة منه كي يفر من هذا الاجتماع وعندما أخذته العاملة إلى دورة المياه، لم يرغب فى ذلك بل اراد التوجه والخروج من الغرفة ثم عادت به إلى مكان المقابلة حيث استمرت العملية التشخيصية قرابة الساعة والنصف تخللها أسئلة كثيرة حول حالت يونس وكان البعض يراقب تصرفاته، أثناء إجابته على الأسئلة وكان ذلك يوما عصيباً. انتهت المقابلة وتم حفظ الأجوبة فى ملف الطالب يونس، وجاءت النتائج مشيرة إلى أنه لازال يعاني من هذا الاضطراب، ولكنه مصاحب بارتفاع فى معدل ذكاءه.

******

خرجت كريمان من المدرسة متجهة الي منزلها مصطحبة معها أبناءها وعند دخولها الي البيت، وقفت للحظات أحست بتدفق الدم يصعد إلى رأسها، وبضغط قوي على صدغها، وبدون تفكير دخلت الي الشقة متعبةً لكنها بعد دقائق هبط عليها هدوء مفاجئ لا تعرف من أين وكأنما أحد سكب عليه سطلاً من الماء المثلج كانت تشعر وكأنها عاشت هذه اللحظات من قبل، وكان أبناءها ينظرون اليها ولا يعرفون ما هذا، فالمرض شيء غامض بالنسبة لهم فكان هذا يوم شاق تمر به كريمان.

******

وفي مساء ذات اليوم كان عادل جالساً فى غرفة نومه ثم فكر بأنه يجب علية أن يذهب إلى المشتري الحاج السعيد وعليه إنجاز أمر البيع بأسرع وقت ممكن ،لاسيما وأن وضعه الاقتصادي بشكل عام سيء، فليس لديه مبلغ إضافي يستطيع به العيش لفترة ما ويريد المال لإنجاز سفره الي إيطاليا ، وخاصة ان صاحبه أحمد أبلغه بانتهاء إجراءات التأشيرة وانتبه ايضاً بأن المدة المتبقية للسفر تكاد تكون قريبه فهو يوم اللقاء الموعود الذي طال انتظاره، نهض مسرعاً حلق لحيته إذ أنه منذ وفاة أخيه لم يكن يحلق لحيته إلّا قليلاً ونزل الشارع وركب سيارته وانطلق إلى شارع البدوي حيث بيت الحاج سعيد.

******

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة مساءً، وقد ذهب عادل الي منزل الحاج سعيد مبكراً عن الموعد المحدد بينهما وحينما وصل الي البيت، فوجئ أنه كان جالساً مع اثنين من أصدقائه هو

الأستاذ حمدي المحامي وصديق آخر، لكن الحاج سعيد ما أن لمح ملزمة الأوراق التي بها عقود الأرض حتى فهم بأنه فى عجلة من البيع، وبعد التحية جلس عادل إليهم وكانوا مرحين وكان بين لحظة وأخرى يلقي أحدهم نكته، ولم يكن هذا بجديد عليهم، وبعد دقائق انتقلوا الي غرفة الاستقبال للتحدث فى إجراءات البيع واتمامه فقد أحضر الحاج سعيد المبلغ المتفق علية للأرض والمنزل معاً.

أعدّت زوجة الحاج السعيد صحناً من الفاكهة والكعك ووضعتهم على الطاولة التي أمامهم ثم اتجهت إلى المطبخ، وعادت إليهم بقنينة عصير مانجو، ثم ذهبت لإشغال نفسها فى المطبخ، لكن الوقت كان مبكراً، لذلك جلس أبناء الحاج السعيد على الأريكة بالصالة المقابلة لهما فى غرفة الاستقبال، ولكن بعيدة عنهم وأخذوا يشاهدون التلفزيون الذي كان يعرض فيلما انجليزياً عن الحرب كان الفيلم يروي قصة رجلاً مغامراً يهزم مجموعة من المحاربين وحينما وصل الي إحدى القرى قد اختفي فى كهف بعيد.

طلب عادل من الأستاذ حمدي المحامي أن يبدأ بكتابة العقود وحاول هو جاهداً أن يحافظ على توازنه كي لا يكتشف الحاج سعيد اضطرابه، فهو لم يخبر كريمان ببيع المنزل فقد اتفقا على بيع الأرض المجاورة للمنزل فقط، وبدأ المحامي بكتابة العقود، فقد اتفق على بيع المنزل بمبلغ أرخص بكثير من سعره الاعتيادي، وكذلك الأرض وان انتهت إجراءات البيع أخذ عادل

المال وذهب الي منزلة وقد اتفق معه على ان يتم استلام المنزل بعد شهر حتى يتمكن من شراء شقة له وأخري لأبناء أخية.

******

وفي صباح اليوم التالي حوّل المال إلى الدولار من البنك والسوق السوداء، ولم يخبر كريمان بأنه قد أنهي إجراءات البيع وقال لها أن المشتري لم يتمكن حتى الآن من تجهيز المبلغ، ومر على بيع الأرض والمنزل يومين.

حينما برز القمر فى السماء المظلمة ليلاً خرجت كريمان للتسوق وشراء بعض احتياجات البيت، ثم عادت الي بيتها فكانت تحمل أكياساً وفجأة وجدت رجل أمام باب البيت ينظر إليها بتأمل فألقي عليها التحية ثم نادي علي عادل:

- أستاذ عادل.

نظرت اليه كريمان ثم سألته:

- هل أستطيع أن أساعد؟ هل جئت لرؤية عادل؟

- نعم. أنا الحاج السعيد البدوي انتظر الأستاذ عادل.

اطمأنت كريمان حينما سمعت اسمه، أحسّت هي ببعض الراحة حينما ظنت أنه جاء لشراء الأرض فرحبت به وارتسمت على ملامحها الابتسامة، واذنت له بالدخول ولكن فى نفس الوقت قد نزل عادل مسرعاً لاستقباله واعتقدت هي أنه جاء للاتفاق على البيع فهي لا تعلم ان عادل قد أتم البيع. حينما نزل عادل الدرج همس فى نفسه: ما الذي أتي به الآن؟ ثم ابتسم له مرحباً، ولكنه قد ارتبك لثواني عندما راي كريمان تتحدث

اليه، وحينما مضى الحاج سعيد صاعداً خلف عادل إلى الطابق الثاني حيث شقته، وفي نهاية الدرج وجد درجة من السلم شبه مكسورة، فقال له الحاج سعيد له ان البيت يحتاج مني بعض الترميم، حينها نظر إليه عادل فى ارتباك، وسمعت كريمان هذا الحديث عند صعودهما، ولكنها لم تنتبه الي شيء من أول وهلة، ثم دخلت هي الي شقتها، وحينما دخل الحاج سعيد صالة الشقة ابتسم له عادل مرحباً، ثم قال:

- أهلا حاج سعيد. أهلا وسهلا. تفضل استرح. هل تشرب شيئاً؟

- قال: شكراً جزيلاً.

ضروري أن تشرب شيء.

- أردت أن أعرف بماذا يمكنني أن أساعدك؟

صمت عادل للحظات وكأنه كان يفكر بالكيفية التي يجب عليه بدء الحديث به وبهدوء وبلا أي توتر بل وبتركيز شديد حدق عادل فى وجهه وهو يقول:

- يمكنك أن تساعدني كثيراً أستاذ عادل. هل حصلت علي بيت جديد لك ولأبناء أخيك؟

شعر عادل بغضب مكتوم من سؤاله، ثم أجابه قائلاً:

- لا. ولكن سوف أحصل على شقة جديدة فى القريب العاجل.

صمت الحاج سعيد للحظة، ثم قال له بنبرة جادة:

- أستاذ عادل سأسألك سؤالاً، أرجو أن تجيبني عليه بدقة.

- تفضل.

- ألست بحاجة الي المنزل حقاً، أنت وأبناء أخيك؟

انتبه عادل إلى سؤاله ونظر إليه مجيباً:

- قلت لك سوف نشتري لكل منا شقه جديدة؟

انتبه لجفاف لهجته. فقال له بنبرة هادئة:

- طبعاً. طبعاً. ان شاء الله.

انتظرت كريمان على باب شقتها كي تعرف متي سيتم الانتهاء من إجراءات بيع قطعة الأرض كما تظن، فقد شعرت بشيء من عدم الارتياح الي حد ما من حديث الرجل مع عادل عند صعودهما الي شقته، وحينما نزوله الحاج سعيد علي درج البيت رآها أمام بابها فسألته مستفهمةً:

هل لي ان أسألك سؤالاً أرجو أن تجيبني عليه بدقة؟

تفضلي.

متي سيتم الانتهاء من إجراءات البيع؟

انتبه الي سؤالها فنظر اليها مستفهماً:

لقد انتهينا واستلم عادل المبلغ كاملاً للأرض والبيت، ألم يبلغك عادل بهذا؟

فقال بعصبية ودهشة واضحة:

- البيت! أي بيت؟

- هـذا البيـت، قـال لـي عـادل أنكـم تبحثـون الآن عـن شـقة للشراء وجيئت اليوم أتحدث معه عن موعد استلام البيت، فقد أنهينا العقود وبموجب التوكيل الرسمي منك عن أبنائك أيضاً.

أحست كريمان برعشة تسري فى جسدها عند سماعها هذا الخبر، ثم هبت صاعدةً ومسرعةً الي شقة عادل ودون إرادة منها مصدومةً من هول الخبر، همست فى نفسها متعجبةً، البيت؟ كيف؟ بينما خرج الحاج سعيد من البيت وهو يردد، لا حول ولا قوة الا بالله. وحينما فتح لها الباب وأصبحت هي أمامه أحست بالغضب يتصاعد شيئا فشيئاً فى أعماقها، لكن عادل ضغط على نفسه كاتماً ما يعتمل فى داخله كأنه سوء فهم منها، ثم قال لها:

- لما هذا الغضب يا كريمان؟

- لماذا تتصرف فى بيع المنزل دون اتفاق بيننا؟

شعر عادل بارتجافه وبرودة تجتاحان جسده بسبب غضبها.

وقال بضيق وبنبرة تشوبها بعض العصبية:

- اجلسي واسمعي.

- لا. سوف أتحدث الي عمي حسن والعائلة عما حدث.

- أي تحقيق هذا؟ هل أنا فى تحقيق؟

صمت كريمان لثواني ثم عقبت بنبرة فيها اتهام مشوب بعتاب.

- أنت لا تريد أن تخبرنا كيف تم البيع؟ ولماذا؟

صمت لحظة ثم نظر إليها بتساؤل، وقال بتردد وكأنه يرد أن يحل لغزاً:

- أنا الذي أريد أن أسألك، أليس من حقي أن أبيع المنزل؟

- بلي. ولكن ليست وحدك صاحب هذا القرار.

ابتسم عادل ابتسامة خبيثة وهو ينظر إلى وجهها ساخراً، ثم قال:

- تسألين كيف أبيع حقي؟ أنا الذي أسألك الآن، لماذا لا تريدين أن أبيع أنا حقي؟ غداً سوف أذهب الي البنك وأتي لك بنصيبكم من الأرض والبيت.

لم تتحمل كريمان طريقته فى الحديث، فقفزت من كرسيها غاضبةً ومنفجرةً وخرجت وهي تقول له سيكون لي كلام آخر مع عمي حسن والعائلة، وخرجت وهي تردد حسبنا الله ونعم الوكيل.

******

اتصلت كريمان هاتفياً مع العم حسن وحكت له ما حدث، انتظرت أن يأتي عادل بنصيبها فى اليوم التالي ولكنه لم يخرج من البيت فى هذا اليوم، فعلمت أن هناك شيء ما يدبره عادل، وعند نزوله على درج البيت فتحت باب شقتها وبدأت تتحدث اليه وقد بدأ الشجار بينهما وقد سيطرت ألفاظ الشجار على سلوكهما وتفكيرهما وتفاقمت المشكلة وأصبحت أكثر سوءًا وكان أبناءها حينها فى البيت وأصبحوا ايضاً طرفًا فى الشجار، اذ دفع عادل يونس أرضاً عند محاولته الاقتراب من أمه وقد

غضبت كريمان لما حدث، فتفاقم الشجار بينهما أكثر ثم خرج عادل من البيت مسرعاً، ومرت ساعة، كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ظهراً حينما رن جرس الهاتف، ذهبت كريمان اليه فرفعت سماعة الهاتف مسرعةً ظنا منها أن المتصل هو العم حسن لكنها فوجئت بصوت أختها فريدة فحكت لها ما حدث.

******

في مساء ذات اليوم جاء اليها العم حسن وبعض أفراد العائلة، وكان والدها من بين الحضور فحكت لهم ما حدث من عادل، وانتظر الأهل حتى يعود عادل ولكنه كعادته يأتي ليلاً في منتصف الليل، وكان حينها عادل جالساً مع صديقة احمد الذي سيساعده على استخراج تأشيرة السفر الي إيطاليا، وكان الحديث يدور بطريقة مختلفة ولكنهم حينما يود أحدهم أن يتحدث عن شيء آخر غير الحديث عن روما والمال الذي يريد الحصول علية والذي يجنيه عند سفره، سرعان ما كان يعود عادل من حديثه الآخر.

قد أحس عادل بأن ثقلاً انزاح عن صدره عندما حصل على تأشيرة السفر، بل واستلامه تذكرة السفر أيضاً، إذ قرر السفر صباح اليوم التالي وطلب من صديقة أحمد أن يترجم له بعض المصطلحات التي من الممكن استخدامها هناك والتي يستطيع التفاهم بها هناك بالإيطالية وقال له أحمد عادة ما يحصل المسافرون على ورقة من الدوائر المختصة لتوضيح كيفية التعامل معهم حينما يريدون الذهاب إلى مكان ما، وفي الصباح سافر

عادل إلى فرنسا، ومنها إلى إيطاليا بعد ان حوّل المال الي بنك إيطالي.

******

وفي اليوم التالي جاء العم حسن للتحدث الي عادل ومعه أبناءه وبعض افراد العائلة ولكن كانت صدمه كبيره لهم جميعاً حينما عرفوا ان عادل سافر الي إيطاليا، وكانت صدمة أكبر بكثير بعد ما عرفت كريمان بهذا، فقد حرمهم من حقهم فى الميراث، وصمدت العائلة وكأنها تؤيد ما فعله عادل، وكأنه ليس لها الحق أن تأخذ ميراث أولادها، رغم انهم رافضين أن يضيع حق أبناء نبيل، فهي على علم بحقها الشرعي فى تركة زوجها وذهبت للمثول امام المحاكم ولكن قد فات الأوان وليس عندها ما يثبت حقها، فما حدث ليس جهلاً منها ولكن ثقتها فيه فهو عم لأبنائها. أخفضت كريمان رأسها وأخذت تنظر إلى الطاولة وهي شاردة الفكر، وأحست برغبة مفاجئة بالبكاء لكنها تداركت نفسها أمام العائلة وهمست فى نفسها: هل هو يعاقبني لأنني رفضت الزواج منه عندما أراد إيضاح هذا لي من قبل؟ أم يعاقب نفسه؟ فقد فوجئت من تسارع الأحداث وأن نهاية العالم قد اقتربت.

******

بعد مرور أسبوعين من تلك الجلسة التي كانت بين كريمان والعم الحسن وبعض أفراد العائلة، وبعد انتهاء المدة المتفق عليها لتسليم البيت الي صاحبه الجديد الحاج سعيد، فقد بحثت كريمان لفترة طويلة عن شقة لاستئجارها لكن بدون مقدم فهي

لا تملك مال ولكن المشكلة التي لم تتوقعها هي أن يونس لم يقبل التغيير لأنه لا يتأقلم بسهولة مع أي شيء جديد فى حياته، كريمان تفهم هذا فى بداية الأمر كانت تأخذه إلى الشقة الجديدة يومياً، كل مساء وتأخذ جولة داخلها وفي يوم ما أخذت أبناءها كي يرون الشقة الجديدة، وقالت:

- هذه غرفتك يا يونس فقد أخترتها لك فى هذه الشقة الجديدة:

ابتسم يونس ولكنه لم يدرك الأمر جيداً وقال:

شكراً يا امي.

نظرت الي زينب ثم ابتسمت لها ثم فجأة ارتسمت علامات الحزن على وجهها وهي تقول:

هذه غرفتك يا زينب.

ابتسمت زينب وبدأت تتجول فى الشقة، ولكن يونس أصابته دهشة حقيقة حينما أدرك الأمر وفجأة بدأ بالصياح والصراخ.

******

في اليوم التالي عندما راي يونس العمال يحملون أثاث الشقة للانتقال الي الشقة الجديدة، بدأ بالصراخ والصياح ولكن أمه لم تتوقع أن هذه المشكلة قد تكون كبيرة للغاية، فى بداية الأمر يتجول يونس فى الشقة ثم يقف عند الباب وكانت أمه تأخذه إلى الشقة القديم وهكذا استمرت عملية التهيئة قرابة شهر فهي كانت تتفهم وضع ابنها، فقد نقلت له غرفته بالكامل

مع الأخذ فى الاعتبار وضع كل شيء فى مكانه لكيلا تختلف عن الشقة القديمة ثم بدأ يتأقلم مع المكان شيئاً فشيئاً.

كان التعب يبدو واضحاً على يونس من قلة النوم وظهور سلوكيات جديدة مثل الصراخ والبكاء ايضاً وبسبب التغيير فى المكان ولكن أمه تفهم وضعه وتجلس معه حتى أوقات متأخرة من الليل وكانت تخرج معه يومياً ومعها زينب وتذهب إلى المنزل القديم ثم تعود إلى المنزل الجديد ، إلى أن تأقلم يونس علي الشقة الجديدة.

******

حينما سافر عادل فى البداية الي مدينة باليرمو الايطالية وعمل فى إحدى الورش الصناعية للسيارات فهو ذا دراية كاملة بمجال تجارة السيارات ولكنه كان يعمل عاملاً فى بداية الأمر، فهو لا يعرف اللغة الإيطالية وكان يسعي للأفضل دائما وبعد عدة شهور أتقن اللغة الإيطالية بمساعدة صديقه المصري مصطفي، الذي كان يعمل معه فى نفس مكان العمل وبدأ عادل يفكر بتجارة السيارات المستعملة فهو لديه المعرفة الكافية الخاصة بمواصفات السيارات والمحركات ومعه مال يكفي للشراء.

بدأ عادل فى شراء سيارة بسعر مرتفع واعتقد انه سوف يجي من ورائها ربح جيد ، ولكنه خسر بعض المال فعلي الرغم أن عادل ذا دراية كاملة بمجال تجارة السيارات، ولديه المعرفة الكافية الخاصة بمواصفات السيارات والمحركات، ويستطيع معرفة حالة السيارات قبل شرائها والتأكد من جودتها الا أنه ليس لدية دراية كافية بسوق بيع وشراء السيارات بالمدينة.

******

وفي صباح اليوم التالي ذهب الي عملة، بالمنطقة الصناعية وكان غاضباً فهو لم يوفق فى بيع السيارة بثمن جيد بل خسر بعض المال بعد عرضها لأيام وشهور وعندما وصل كان مصطفي منشغلا بارتداء الكفوف الغليظة الواقية لبدء العمل حينما التفت إليه وجد عادل حزيناً فسأله:

- ماذا أصابك يا عادل؟

- لا شيء.

- لا. لابد من ان هناك شيء. انت لست بحالة جيدة اليوم. ماذا حدث؟

- السيارة التي اشتريتها.

فقاطعه مصطفي فى الحديث مستفهماً:

- من فئة الفورد؟ اعرف، ماذا حدث لها؟

- بعتها أمس ولكن أقل من ثمنها بكثير، انت تعرف فقد عرضتها للبيع منذ عدة أشهر ولم احصل على مشتري لها وجاء لي أمس شخص لشرائها فما كان امامي الا بيعها بهذا الثمن. أنا أعرف أنه كلما زادت جودة السيارة يتم بيعها بسهولة. لماذا لم ابيعها بثمن جيد؟ بل خسرت بعض المال لبيعها، كنت فى مصر أنال إعجاب الزبائن فلماذا لم انجح من خلال تجربتي؟

- كيف يتم بيع السيارات ذات الأسعار المرتفعة فى منطقةٍ متوسطة الدخل، إنما يمكن أن يتم بيع السيارات المناسبة فى سعرها لأهل المنطقة والمدينة المناسبة.

- أكان هذا هو السبب من التأخر فى بيعها بل وبيعها بهذا السعر؟

- بلا. فقد نصحتك قبل شراءها.

- أكان هذا بسبب ان فئة السيارة غير مناسبة لبيعها فى هذه المدينة؟

- بلا. هذا هو السبب الرئيسي وأنصحك أيضاً بأنه يجب أن يكون ربحك معقولاً، ولا ترفع ثمن السيارة بشكلٍ كبير، إذ يؤدّي ذلك إلى اتجاه الزبائن إلى معارض أخرى للحصول على السيارة التي يريدونها بسعرٍ أفضل.

******

قد حملت كريمان العشرينية لقب الأرملة، وحملت معه الخروج الي العمل لتوفير متطلبات طفليها، تستيقظ كل يوم فجراً تحملت كثيراً من الإهانات والمشاكل من أقاربها وجيرانها بسبب رفضها الزواج نظراً لصغر سنها، فصمدت وأصرت على تربية طفليها ولكي تحقق حلمها فيهما، عندما تقدم سن أبنائها، زادت أعبائها ومتطلبات الحياة عليها، فلجأت للعمل فى حياكة الملابس التي تعلمتها على ماكينة خياطة بمنزل أسرتها وهذا بعد انتهاء عملها.

******

حينما ذهب عادل ليبحث عن مكان لتناول الطعام، وكان الساعة فى حدود العاشرة مساءً، دخل الي مطعم أورتي، فهو واحداً من المطاعم الحلال الأكثر شعبية فى باليومو، فهو

مملوكاً لأحد رجال الأعمال المسلمين الجزائريين، وبالتالي فإن الطعام الذي يقدم هو الحلال تماماً ولكن لا مانع من وجود نوع من الكحول مع الطعام، فهو كان يعتاد على تناول المسكرات، وحينما جلس عادل كان بجوار طاولت فتاة ايطالية جميلة جلسةً تتناول طعامها، جاءه النادل وألقي علية التحية، ثم قال:

- ماذا تريد يا سيدي؟

- أريد وجبة من الطعام الإيطالي الأكثر شهية لديكم.

وفجأة نظرت اليه الفتاه وقالت له فى رقة:

لا تتردد فى طلبك يا سيدي، فالطعام هنا شهي ولذيذ.

أشكرك.

اعتقد أنك لا تتردد لزيارته مرة أخري، فعندما تبحث عن الأماكن الحلال لتناول الطعام تأتي هنا.

ابتسم لها وقال لها بطريقة ودودة:

ماذا تفصدين بالحلال؟

ابتسمت له وقالت:

- أنا أعرف أن بعض الوافدين المسلمين يواجهون مشكلة الطعام الحلال هنا.

فقال باستغراب إذ وجد فى كلامها شيئاً مختلفاً فسألها:

- وهل أنت مسلمة؟

- لا. ولكن أحب هذا المطعم فأكله شهي، وعندما أتي إلى هنا أجد من الوافدين المسلمين من يبحث دائماً عن الطعام الحلال والمناسب لهم.

تناولت الفتاة طعامها وخرجت مسرعةً قبل انتهاءه من وجبته، بينما كان هو لا يريد أن ينهي هذا الحوار وفكّر حينها فى نفسه للحظة، كيف ستكون الحياة هنا من غير شريك فى الحياة؟ لقد شغلتني هذه الفتاه لماذا لم تجلس كي أعرفها جيداً؟ هل أُعجبت بها؟ هل أُعجبت بي؟ ولكن ما الفائدة إذا أحببتها أو أحبتني هي؟ يتغير الإنسان وينقلب إلى ضده؟ حينما أسترجع الماضي أجد نفسي فى حيرة أمام زوجتي القديمة سميحة، التي ساعدتها كثيراً ثم ساعدتني هي بطلب الطلاق، ودافعتُ عنها فى مختلف الأحوال والظروف، والتي طالما حدثتني عن الحب والقدر وعن ظلم الأهل والناس والمجتمع هذه نفسها تحولت إلى ضدي، واضطهدتني حينما رجعت إلى البيت يوماً ثملاً ولم تسمعني، بل لا أتذكر أسوأ من تلك الأيام خلال تلك الفترة التي امتدت لعام ونصف.

******

وبعد مرور يومين وفي مساء يوم ما ذهب عادل الي مطعم أورتي، وفي ذاكرته أنه من الممكن أن يري الفتاه الجميلة التي تحدثت اليه من قبل، الفتاه إيطالية الجنسية فى العشرينات من عمرها شعرها ذهبي اللون طويل وعيناها رماديه واسعة وقوامها نحيف وبشرتها بيضاء وهي أبنة لأحد رجال الأعمال الايطاليين وتعيش مع والدها فى بيت كبيرة واسعة، حينما دخل عادل المطعم وجلس فى نفس الطاولة ولم تمر دقائق إلا ودخلت الفتاة الجميلة التي تحدثت إليه من قبل ولم تلتفت هي إليه ولم ينتبه هو لها أول الأمر و هي جالسةً قرب باب المطعم، فجأة رفع رأسه

إليها ونظر إليها بشرود وكأنه لم يرها ثم واصل الأكل لكنها وقبل أن تلتف لتأكل سمعته يقول بصوت خافت:

- مساء الخير يا آنسة.

بينما كانت الفتاه منشغلة بنفسها تستعد لتناول طعامها لذلك لم تسمع صوته، شعر هو بعرق بارد يغطي جبينه، ثم نهض متجهاً اليها مرحباً، وطلب أن يجلس معها فرحبت به ثم سألته:

- انت المصري؟

- نعم.

- أهلاً. هل أستطيع أن أساعد؟

- هل تسمحي لي بالجلوس؟

- بلا. ليس هناك ما يمنع تفضل بالجلوس.

- أين تعمل؟

- فى شركة أوسانو لبيع سيارات.

استرخت ملامحها وابتسمت ابتسامة خفية، وانتبه هو لابتسامتها، فسألها مستفسراً:

- هل تعرفين هذه الشركة من قبل؟

- نعم. كان لي هناك معاملات سابقة لحساب والدي قبل عامين.

بدأ عادل يسمع ملاحظاتها عن الشركة واعتذرت له وقالت ربما ملاحظاتي لا تعجبك وربما انزعجت منها، فنفى ذلك وأصر على أن تواصل وتقول ما لديها وبصراحة شديدة قالت له كلاماً

وكأنها كانت قد أعدّته لأنها لم تتوقف ولم تتردد فى سرد ملاحظاتها الجريئة عن الشركة.

ثم قاطعها عادل مستفسراً، وكأنه استلم رسالة خفية منها بالقبول، وقال لها:

- سوف أتركها قريباً لأنني بدأت اعمل لحسابي الشخصي، ولكن ما هو عمل والدك؟

- لدية شركة تأمين سيارات.

- معذرة انا أسمي عادل. وأنت؟

- فوليتا.

- أهلا. سعيد برؤيتك. هل أنت متزوجة؟

نظرت إليه أول الأمر بغرابة لمقاطعته لها مستفسراً عن هذه التفصيل من كل ما تحدثت به معه، ثم استرخت ملامحها وابتسمت ابتسامة خفية، وكأنها فهمت بأنه يريد أن يتعرف عليها شخصياً، ولا يعنيه ما تقوله عن الشركة.

- لا. أنا كنت متزوجة من رجل شرطي وبرتبة كبيرة. وأبي.....

صُدم من إجابتها وكأنها جاء كرسالة تهديد تنبهه ألا يتمادى معها. فواصلت هي قائلةً:

- أبي كما قلت لك لدية شركة التأمين. أرجو ألا تكون ملاحظاتي جارحة أو مزعجة عن الشركة.

- لا. أبداً على العكس ولأنك قد سمحت لي بالحديث معك بصراحة أنا اعتمدت على تجربتي الشخصية من قبل فى العمل بتجارة السيارات وأسعى للأفضل.

- لماذا أنت متردد. هل تريد أن تقول لي شيء؟

فكر عادل بسرعة خارقة كيف له ألا يحاصر هذه المرأة الفاتنة بشبكة حب عنكبوتية.

- سوف أتحدث معكي بصراحة لقد جيئت اليوم لرؤيتك.

- لرؤيتي!؟

- نعم. أنها المرة الأولى التي أجد بها نفسي وشعرت بأنك من الممكن أن تفهمي ما أفكر به، بل وقد وجدت من يفهمني فهماً عميقاً، وهمس فى نفسه: أشعر أنك روحي القلقة والمعذبة.

وقعت كلماته عليها أدرك بأنه أثر فيها من خلال تعظيم شخصيتها ومنحها هذا التوصيف الذي أعجبها وأثار غرورها ودفعها للتعاطف الخفي معه، فقالت له مبتسمة:

- يشرفني أن أكون بهذه المكانة لديك برغم اعتقادي أني كنت قاسية فى الكلام معك.

- بالعكس أسعدني جدا.

لاحظت هي أنه ينظر فى عينيها فقالت له بهدوء شديد:

- لماذا تنظر الي هكذا؟

لم يجبها عادل لأنه فى تلك اللحظات كان يتخيلها بفستان ابيض وكأنها تجلس بجواره، لكن كان عليه الإجابة أيضا، فقال:

- أتمنى شيئاً واحداً بل هو رجاء أكثر مما هو أمنية.

ابتسمت بغموض وكأنها تتوقع ما سيطلبه لكنها أرادت أن تتأكد ، وقالت:

- ما هي أمنيتك أو رجاؤك؟ بودي معرفة ذلك لو سمحت؟

نظر عادل إليها بتفحص عرف أنها تعرف ما سيقول وأنها تتقبل ذلك لكنها تلعب معه أيضاً ، وقال:

- أريدك أن تكوني لي صديقة ، فأنا لا أعرف أحداً منذ اقامتي هنا أريدك بجواري دائماً. أريد أن أرى نفسي فيك وأن تسمعيني دائماً.

ابتسمت أكثر وقالت وهي تنظر فى عينيه مباشرة.

- دائماً؟

- دائماً وإلى آخر لحظة فى حياتي.

ضحكت بمرح وقالت:

- أوه، بدأنا ندخل فى الكلام الجد ، إلى آخر لحظة فى حياتي؟! هل أنت متأكد؟

- طبعاً. متأكد.

أصطنع عادل الحزن والخيبة لكي يكسب حبها وقال:

- لكني أعرف أن ذلك مستحيل.

فوجئت بتحول حاله وأحست بالخوف من فقدانه.

- لماذا مستحيل؟

نظر إليها كمن يريد إطلاق طلقته الأخيرة على الهدف الذي سيحسم وضعه معها وقال:

- لأنك إيطالية الجنسية، وابنت رجل أعمال وهذا الأمر كما تعرفين ربما سيكون سببا لخلق بعض الصعوبات والمشاكل لك ولي ايضاً.

أحسّت هي ببعض الراحة حينما عرفت سبب الخيبة التي ارتسمت على ملامحه، فقالت مبتسمةً:

- من هذه الناحية لا تقلق، ان أبي دائماً لا يرفض لي طلباً وأنا التي أتحكّم فى كل شيء يخص حياتي كما أني لن أجعلك معرضاً للمشاكل.

ثم نهضت فجأة ومدت يدها مصافحة إياه، ثم قالت مبتسمةً:

- أرجو أن يكون طعام هذا المطعم شهي لكي تأتي اليه مرة أخري.

- بالتأكيد ان طعامه شهي ولذيذ. وسوف أكون هنا غداً لتناول العشاء.

- غداً! ليست لدي شيء.

- غداً.

- إذن غداً.

وحينما استدارت خارجة نظر إليها سارحاً بنظره إليها، ثم جلس على كرسيه مذهولاً وكأنه فى مشهد روائي متخيل وليس واقعياً عاشه بكل تفاصيله. ظل جالسا فى كرسيه لفترة طويلة

دون أن يفعل شيئا غير الاستغراق فى التخيلات والحب وأحلام اليقظة وفجأة، أحس بقلق حينما طرأ تساؤل غريب على ذهنه: ماذا لو اتضح لها أن زوجها الشرطي أراد الرجوع إليها مرة اخري او أراد توريطه فى مسألة ما تكون نتائجها وخيمة عليه؟ ثم نادي النادل وطلب منه حساب الطعام وخرج قاصداً منزله وأعد له كوباً من الشاي وما زال يتذكر كل تلك اللحظات والجمل التي فتحت باباً لسعادة مؤقتة فى حياته. وكانت هذه هي أشد اللحظات الجميلة فى حياته منذ اقامته فى إيطاليا، فقد دخلت قلبه امرأة فاتنة لم يظن أنها بهذا الجمال واستمرت اللقاءات بينهما ثم تزوجها وأنجبت له أبنائهما شاكر ورمزي.

******

إن حوادث الحياة التي اعتدنا على مشاهدتها يوميًّا، فيها ما يكفي الإنسان من الفُرَص والوسائط إذا لم يتأخر عن انتهازها، فعادل تَنَبَّه إلى تجارة السيارات إذ كان يعمل بها من قبل فذهب للعمل فى احدي معارض السيارات فى أول الأمر والشيء الذي لفت الأنظار له أنه كان لبقاً للغاية، ويستطيع أن يقنع العملاء بالشراء بشكل سريع، بل وينال استحسانهم أيضاً من طريقته فى التواصل فهو يعرف ان لديه عقلية تجارية ومع انتقاله الي مدينة أخرى وبعد ترك عمله فى مدينة باليومو جاءت الفرصة، فتلقى عرضاً للعمل فى كبري شركات تجارة السيارات ثم تركها وبدأ فى حصد الأموال مع ما كان يمتلكه من قبل من بيع الارث، فقام باستثمار امواله فى مشروع ناشئ لبيع السيارات

المستعملة من قبل، فحقق أكثر من مليوني يورو فى مدينة نابولي بعد عامين من سفرة، ثم أسس شركة كبيرة لبيع السيارات.

******

مرت عشرة سنوات وكريمان على العهد مع أبنائها حتى كبرا، وفي شهر يوليو من عام ٢٠٠٤م، أصبح يونس فى السادسة عشر من عمره، وأصبح مثل اقرانه بل وأفضل، فقد حملت كريمان على عاتقها ألا يشعر يونس يومًا أنه دون غيره فقد أخلصت التربية صدقاً ما عاهدت نفسها عليه وشاركت فيها أبنائها لتحصد ه ثمار غرسها.

في صباح يوم ما جلس يونس وحيداً فى إحدى زوايا غرفته كما كان فى صغره، فهو دائماً يخلق له عالماً خاصاً من الأفكار فهو يسعي لإدراك الأشياء من حوله لأنه أحياناً تصيبه لعنة الخوف والاضطراب، يشعر دائماً بعدم الرغبة فى التودد للآخرين على الرغم من أنه فى أشد الحاجة لهم وقد عاش فى مراحل طفولة قاسية دايما ما يتذكرها. ففي زاوية جلس يتذكر حينما بدأ الذهاب إلى المدرسة وكانت امه تصحبهما وتأتي أمه بعد انتهاء اليوم الدراسي لتصحبهما، وكم كان يكره ذلك رغم أنه كان لا يحب أن يلعب مع بقية التلاميذ ولكنه كان يحب ان يرجع الي البيت دون رقيب، فكان يري زملائه يرجعون جماعات وأثناء عودتهم إلى بيوتهم يثرثرون ويضحكون وأحيانا يمرون بمواقف مضحكة وغريبة، يتبادلون الحديث عنها فى اليوم الثاني وعندما يتجمعون أثناء الفاصل بين الدرس، فكان

يحس بالأسى لأنه لم يمر بأي موقف مسل وطريف بل ولم يحبه أيضاً.

ويتذكر ان أبيه كان يحبه كثيراً من أعماق قلبه، بل يتذكر أنه حينما كان صغيراً كان والده يوقفه أمامه ويتأمله وكأنه كان يبحث عن شيء فى وجهه، فهو كان يشبه والده كثيراً وكلما تقدم يونس بالعمر تقترب المسافة بينه وبين الناس.

ويتذكّر حينما كان صغيراً عندما جاء عمه عادل ذات ليلة ثملاً و دخل إلى البيت بصلافة وعندما جاءت أمه تحدثه عن مشكلة بيع البيت تشاجر معها، وكان هو حينها واقفاً يبكي خائفاً من هذا الشجار الذي انتهى بدفعهما أرضاً وأغلق الباب عليهما وصعد حينها عمه الي شقته، لم ولن ينسى تلك الليلة التي ظلت تفاصيلها تعاوده دوماً و يتذكّر أنه لم يعان من الحرمان المادي قط رغم الظروف التي مربها، فكل ما يحتاجه كان موجوداً، وكل ما يتمناه يتحقق ويستجاب فوضع العائلة من الناحية المادية كان مقبولاً، إذ أن أبيه كان مدرساً لذلك كانت أمه تتقاضى معاشاً ليس بالقليل وأمه كانت تعمل ايضاً بالإضافة الي عملها الآخر.

بدأ يتذكر سنوات عمره فبعد أن دخل المدرسة وهو فى السادسة من عمره لتعلم حروف الأبجدية وعد الأرقام كان يعاني دائماً من صعوبة النطق وعيوب الكلام وعدم القدرة على استخدام اللغة، ثم بدأ فى تلك المرحلة النطق بطريقه صحيحة والكلام بدون صعوبة.

يتذكر الأحداث التي مر بها ، ففي شهر سبتمبر عام ١٩٩٥م ومع بداية العام الدراسي الجديد ، جاء يونس الي المدرسة مبكراً كعادته فكان يجلس دائماً فى ركن بعيد هادئ بغرفة الدراسة بنظرات مرتبكة وخائفة ولكنه بمستوي تعليمي ممتاز ، لكنه كان يحتاج لتعلم التفاعل الاجتماعي وكيفية التصرف الاجتماعي داخل الفصل والمدرسة فكان يجد صعوبة فى تغير أي سلوك تعلموه من قبل بل ويجد المعلمين أيضاً صعوبة فى تغيره والسلوكيات التي تعلمها وهذا ما كان يسبب له كثيراً من المشاكل داخل المدرسة ومع زملائه.

يتذكر حينما دخل غرفة الدراسة فى صباح أحد الأيام وقد تفاجأ بعدم وجود لوحة من الوسائل التعليمية التي كانت تتضمن درس لمادة العلوم غير معلقة بالصف فبدأ يصيح ويصرخ قرابة الساعة وقد غضب المعلم وصاح الطلاب وفهم معلمه الأستاذ صابر هذا السلوك ، ثم بدأ يونس يهدئ وشعر المعلم والطلاب بالارتياح ولكن عندما جاء معلمه فى اليوم التالي وجد أن يونس قد استخدم إدراكه ورسم لوحة مكانها على الجدار شبيه باللوحة السابقة التي كانت معلقة من قبل وقريبة من نفس المكان ، ابتسم المعلم لهذا التصرف ، فهو لم يتوقع أنه بهذه المهارة الكبيرة فى الرسم ولم يغضب لهذا فهو يعرف أن ادارك التغيرات لمكان ما لا يتحملها يونس ولو كان هذا التغير بسيطاً وبدأ معلمه تشجيعه تدريجياً علي قبول تغييرات أكبر وبدأ يوضح له

التغييرات المتوقع حدوثها فى المستقبل حتي يكون أكثر استعداداً لتحمل التغيرات التي تحدث له.

يتذكر أنه قد تعلق بمعلمه كثيراً، وتغيرت حياة وأخذ يواصل المعلم جهوده فى الدراسة واللعب معه أحياناً، والأهم بدأ بإخراجه خارج المدرسة، وإشراكه فى الرحلات الخارجية، ليكسر حاجز العزلة ويساعده فى الاندماج مع المجتمع بطريقته، فى أول رحلة له كان خائفاً جداً من أن يفقد السيطرة عليه، أو أن تصيبه حالة هيجان، ولكن عندما سارا معاً تجاه البوابة، وهو يقبض على أصابعه، اطمأن وشعر أن الأمور ستكون بخير.

يتذكر حينما أخذه معلمه يوم ما لزيارة النادي الرياضي، ركب المعلم الدراجة أمامه، وهو يقول له: أنا سأصعد على الدراجة هكذا، وصعد يونس الدراجة الصغيرة، ورفع رجله ليركب معه، حدث هذا فى وسط ذهول الجميع الذين يدركون حالته، بكي معلمه كثيراً وهو يرى بداية انسجامه مع المجتمع، وبدأ برغم ما يعاني منه يمارس الرياضة بما فيها ركوب الدراجات والسباحة ويلعب الكرة، ويزور أماكن مختلفة، ويقترب من الناس دون خوف.

يتذكر الآن حينما كان فى الرابعة عشر من عمره أنه كلما ازدادت شدة رقابة أمه عليه، على الرغم من أنها لم تقسوا عليه. كثيراً ما كان يشكو لها وهي التي كانت تلوذ بالصمت عندما كان يسألها: لماذا يعاملني الناس بهذه الطريقة وكأني مختلف عنهم؟ حينها كانت عيناها تغرقان بالدموع، ولم يكن أمامها

سوى أن تحضنه وتقبله مخففة عنه دون أن تقول كلمة واحدة. يتذكر ذلك جيداً، ولن ينسي بل ظل لسنوات ولا يزال يتذكر حينما كان يسأل أمه عن سبب معاملة الناس له بهذه القسوة أحياناً؟ على الرغم من أنه كان طالب يتمتع بالذكاء فهو من المتفوقين طوال مراحل دراسته والجميع يتوقع له التفوق الدائم.

******

دخلت أمه غرفته فوجدته هادئاً هدوء الملائكة وقد كان شارد الذهن، وجلست بجواره ومسحت على رأسه ودعت له بالبركة ولم تقل له شيئاً ولكن عيناها قالت الكثير ثم خرجت من غرفته.

بدأ يونس يتذكر مرة أخري سنوات العمر وكأنها شريط فيديو يتضمن أجمل اللحظات التي مرت به وأصعب المواقف التي وجد نفسه عالقاً بها، ولكن تبقى هناك فترة فى حياته مبهمة إلى حد ما، إذ من الصعب عليه تذكرها حينما كان فى تلك المرحلة العمرية، كيف كان يعيش؟ كيف ترعرع؟ كيف كنا نمضي وقتنا؟ صحيح أن ألبومات الصور شاهدة على بعض التفاصيل والتجارب التي يمر بها يونس لكن عندما يتمعن فى هذه الصور يشعر للوهلة الأولى وكأنه يشاهد شخصاً غريباً عنه ولا يشبهه ولا يمت له بصلة. فلماذا هذا الثقب الغريب فى ذاكرته؟ فهذا ليس بغريب قد لا يقدر أحد منا على تذكر أيام الطفولة. دخلت اخته زينب غرفته وهي تنادي أسمه فوجدته شارد الزهن ولم يجيبها، ثم انتبه قائلاً:

- ها. ماذا؟

- فيما تفكر يا يونس؟

- لا شيء.

ضحكت بمرح وقالت:

- أوه. بدأت أدخل فى المرحلة التعليمية الأصعب وأنت انتهيت منها ، وأنت قد تفكر فى أي كلية من الممكن أن تلتحق بها.

فجاه سمعت زينب توافد الأهالي والجيران على البيت مهنئين الطالب النابغة يونس، فاتجهت لتفهم، فوجدت أمها تقبل الناس فى شقتهم، فهي لا تعلم بموعد اعلان نتائج الثانوية العامة ، فكانت لها مفاجأة كبيرة حيث تم الإعلان عنها عبر القنوات التلفزيونية ، فوصول ابنها يونس الي هذه المكانة كلفها الكثير من الجهد والتضحيات عبرت عن فرحتها بالبكاء لعدم تصديقها التفوق وسط أجواء غير اعتيادية ولكنها سعيدة لتحقيق أبنها لأمنيتها بحصوله على المركز الأول علي مستوي الجمهورية بنظام الدمج التعليمي شعبة العلمي.

عشرة أعوام انقضت أمه على العهد مع يونس حتي أصبح مثل اقرانه بل وأفضل فقد حملت والدته على عاتقها أن يكون مثل شقيقته زينب وحتي لا يشعر يومًا أنه دون غيره فقد أخلصت التربية صدقاً ما عاهدت نفسها عليه، وشاركت فيه ابنها لتحصد ه ثمار غرسها هذا العام مرتين ، الأولى فى يوليو حين تفوق بالثانوية العامة وأصبح الأول على رفاقه فى شعبة العلمي بنظام الدمج علي مستوي الجمهورية، وأما الثانية بعدما حصل

على منحة الجامعة الأمريكية بالقاهرة لدراسة الطب، فى بداية سبتمبر، ولكن امه قررت أن يدرس فى جامعة مدينته لصعوبة انتقاله وحده.

أصبح يونس أول طالب جامعي مصنف باضطراب التوحد فى مصر، ويبدأ مشوار جديد بعيدًا عن منزله بالغربية. أتم يونس عامه السابع عشر وتغيرت حياته وأصبح على موعد مع رحلة يومية يبدأها يوم السبت بالوصول كل يوم إلى الجامعة فى مدينة طنطا، ثم العودة كل مساء إلى منزله فى نفس المدينة، لا ينشغل يونس بمن حوله، ولكن تبقي تساؤلات من حوله كيف لمن لديه توحد أن يبلغ هذه المرحلة؟ كيف يتكيف؟ بينما الفضول وروح الطفل التي لا تغادره تدفعه للمضي قدمًا والاعتياد سريعًا مع ما يظنه البعض أنه مختلفاً عنهم.

******

أقامت مدرسة صلاح الدين الثانوية حفل تكريم للطلاب الأوائل فى الثانوية العامة تحت شعار النجاح هو أساس التميز لكل إنسان أراد التغير، وحيث احتفلت المدرسة بأبنائها أوائل الثانوية العامة و شهد الحفل احتفالاً خاصاً للطالب يونس نبيل المهدي الحاصل علي المركز الأول بالمدرسة وعلي مستوي الجمهورية بنظام الدمج وشهد أيضاً الحفل مدير مدرسة صلاح الدين الثانوية، والذي قدم الكثير من أجل رفعة العلم والمعرفة، حيث أقام العاملون بالمدرسة حفلاً تاريخياً يليق بمكانة المدرسة وإمكانياتها وكرمت المدرسة الطلاب الأوائل بها أيضاً والذين التحقوا بكليات القمة متمنين لهم مزيداً من التفوق.

******

وفي اليوم التالي خرج يونس مع أصدقاءه للاحتفال بنجاحهم، وهي لأول مرة يخرج فيها يونس مع أصحابه، فيونس نادر الخروج مع زملاءه، وحينما رجع ذلك اليوم قبل غروب الشمس إلى البيت، وجد أخته نائمة والمروحة تدور حولها قرب السرير، ألقى التحية دونما اهتمام ودخل إلى غرفته حتى دون أن ينتظر سماع رد التحية انتبهت لدخوله فقامت وعلى وجهها ما يشبه التعجب قائلةً له:

- لقد تأخرت، ظننت أن هناك شيء ما.

لم يعلق على كلامها وإنما سألها عن أمهما فقالت:

- تمددت ثم غفوت.

- هل أكلت؟

سأصب الطعام فهو جاهز، بل وما زال ساخناً.

لم يجبها يونس وانما سأل عن أمه قائلاً:

- هل أكلت أمي؟ وهل أخذت أدويتها فى مواعيدها؟

- نعم. أنا بنفسي ساعدتها على تعاطيها.

- هل هي لازالت نائمة؟

- نعم. قد نامت فقد تمددت بعد أن أخذت الأدوية، على الرغم من أنها قررت أن تصب لك الطعام بنفسها عندما تأتي قلت لها بأنه يمكنني أن أقوم انا بذلك وقد أخذت غفوة من النوم حتى سمعتُ صوت الباب.

******

دخل يونس غرفته ونزع قميصه الذي كان قد ابتل من التعرق، وكذلك سرواله، ثم لبس ملابس البيت التي أخذها من على حمالة الملابس، وحينما جاءت أخته بصينية الطعام، كان يونس متمدداً على الأريكة محدّقاً إلى سقف الغرفة وضعت الصينية على الأرض فنزل هو وجلس على البساط المفروش على إحدى جوانب الغرفة وبدأ يأكل وهو ساهم النظرات، فسألته مستفسرةً.

- هل حدث شيء ما؟

انتبه إلى سؤالها ونظر إليها مستفسراً وقال:

- لا. لم يحدث شيء، ماذا يمكن أن يحدث؟

انتبهت لجفاف لهجته فقالت بنبرة مترددة.

- لا أعلم. لكنك ساهي النظرات فقلت ربما حدث شيء؟ هل لازلت متردداً وتفكر فى أي كلية تريد ان تدرس بها فى العام القادم؟

واستمر هو فى الأكل وملامحه تؤكد أنه يفكر فى شيء ما، ثم قال لها:

نعم هذا ما يشغلني، ولكن قد سجلتُ بكلية الطب.

أنا أتمنى أن أدرس بكلية الطب، لو حصلت على درجات عالية فى مرحلتي الأخيرة سوف أدرس بها.

- وانا بالتأكيد سوف أدرس بهذه الكلية.

وحينما خرجت زينب إلى صالة الشقة، سمعها يونس تتحدّث الي أمه، فلم يكمل طعامه وترك صينية الطعام جانباً وتوقف فجأة وقام ليخرج إلى الصالة ليطمئن عليها.

******

لمع اسم عادل فى سماء تجارة السيارات الإيطالية والعالمية وارتبط اسم شركته عادل المهدي بقصة معاناته فى اول الأمر، الذي تحول فيما بعد إلى رمز من رموز رجال الأعمال المصرية فى إيطاليا، والذي أصبح اسمه اليوم يفرض نفسه بقوة فى عالم السيارات غير أن هذا الاسم يخفي وراءه قصة قاسية ولكن البعض يري أنها قصة تحدي وإصرار للنجاح كما يعتقد البعض انه يقدم مثالاً حياً لرجل الأعمال العصامي بل ويدعوا للتسامح والتعايش بين الأديان السماوية فى خضم النقاش الدائر فى أوروبا حول الإرهاب والتطرف والصور النمطية التي تلاحق المسلمين فى أنحاء العالم.

فكيف أمكنه هذا؟ هل النجاح ضربة حظ؟ أم أنه شيء نادر يحدث مرة ولا يتكرر؟ هل الناجحون ولدوا ليكونوا كذلك، أم لحكمة إلهية لا سبيل لفهمها؟ هل الفاشلون فى الحياة مقدر لهم الفشل، وبالتالي فلا توجد قوة تحت سماء هذه الأرض تستطيع أن تغير من قدرهم وحالهم هذا؟ فهل كان الأمر كذلك؟ هذا كله سوف يتضح من الأحداث الغير متوقعة وعلى كل حال فكل ما يحدث من حولنا ما هو إلا لحكمة إلهية.

******

بدأت صحة العم حسن تنهار وكان يرفض تعاطي الدواء ويضرب عن الأكل كان يتحجج ويبحث عن أي شيء للمشاجرة والاصطدام مع أبناءه، كان يسخر منهم مقللاً من شأنهم وقيمتهم والغريب أن أولاده كانوا لا يردون عليه، وإنما يدخلون الي شققهم ويتركوه وحده فى شقته بالدور الأرضي فى منزله فكان يعيش وحيداً مع أبناءه الثلاثة عمر وعلي وإسماعيل، خاصة بعد وفاة زوجته. وفي ليلة ما بدأ العم حسن ينادي أبناءه: ياااا عمر.. ياااا على.. ياااا إسماعيل، سمعه أبنه عمر ولكن هذا لم يحرك ساكناً عنده ولكن كان يطلب من زوجته أن تعدّ الشاي وهي كانت مستاءة من أنه لم يرد على ابيه، وقد أعدت الشاي وتحمل إليه الفواكه والمكسرات، ويقفل الباب ولا يسمح لها بالخروج، بينما ينهمك هو بمشاهدة التلفاز وأشقاءه الآخرين كانوا خارج البيت.

فقد صار العم حسن أشبه بالمشلول إذ لم يعد يستطيع الحركة بسهولة، وصار شخصاً لا يطاق إذ أخذ يشتم أبناءه بألفاظ جارحة أمام زوجاتهم، الذين لم يعلقون بشيء على أي كلام يصدر من أبيهم وإنما كان الغضب الدفين يملأ عينيهم.

في صباح اليوم التالي طُرق الباب ولما فتحت زوجة ابنه عمر وجدت رجلين بملابس طبية وسيارة إسعاف خلفهما، ورأت زوجها معهما دخل الرجلان مع زوجها إلى البيت وذهبا إلى غرفة العم حسن وسمعت جدلاً، ثم تعالت أصوات بين الأب والابن ومحاولات الرجلين للتهدئة والشرح ففهمت أنه يريد إيداعه فى بيت للمسنين

والعجزة ، وأخيرا انجلى الموقف عن خروج العم حسن مسنوداً مع الرجلين وهو يشتم ويعربد ويصرخ مذكراً بنكران الجميل وعقوق الوالدين ولعنات الأب على أبناءه إلى يوم القيامة شاتماً أزواجهم أيضاً وكأنهم هم الذين أشاروا عليهم للقيام بذلك، وبعد فترة وجيزة باعوا أبناءه المنزل وتجارته أيضاً وبعض العقارات بمبلغ لا بأس فيه لكنه فى كل الأحوال أقل من قيمتهم الفعلية وباعوا كل ما يمتلكه والدهم و اشتري كل منهم منزلاً فاخراً فى وسط المدينة.

******

الفصل السادس
يقـــظـــة

في أغسطس ٢٠٠٥م، قد التحق يونس بكلية الطب وكان هو أول طالب بنظام الدمج التعليمي يلتحق بكلية من كليات القمة فى مصر وتكثر النصائح والتوجيهات والتعليمات والإرشادات التي يمن بها كل من الأهل والجيران عليه. وفي المساء، جلس يونس فى غرفته على كرسي مكتبه، كان متوغلاً أكثر فى قراءة كتاب بيده، وثمة هاجس جاءه ويدفعه لإنهاء هذا الكتاب بأي شكل ولا يدري ربما خوفه ينعكس على قراءته ويقول فى نفسه لماذا اختزل الجزئيين الآخرين بقراءة سريعة؟ وفجأة دخلت إليه أخته مبتسمةً، وهو يقرأ، ثم قالت:

- أليس لديك نشاطاً إلا القراءة؟

- بلي. ولكن عليّ الانتهاء من هذا الكتاب بأي شكل لأنه صار يشكل لي ألم فى رأسي.

- لكن لماذا تستمر فى القراءة إذنً لو كان كذلك؟

- أنا لا أعرف لماذا استمر فى قراءة هذا الكتاب؟ إن الدراسة لا نهاية لها.

- هل كل الطلاب والطالبات بالكلية سيستمرون فى هذه الدراسة الشاقة؟

- بالتأكيد، أنا أشعر بعدم وجود أفقاً لنهاية هذه الدراسة.

- أعانك الله عليها، لقد سمعت أن الدراسة فى كلية الطب لها متاعب كثير ولكني أتمنى دراستها.

خرجت زينب، وطوى يونس آخر صفحة كان قد قرأها، ودونّ عليها ملاحظاته وتعليقاته التي قرأها واسترخى على كرسيه،

تأمل زاوية سقف الغرفة، ظل لفترة أكثر من ربع ساعة وهو يحدق إلى تلك الزاوية، ولم يقطع تأمله وتحديقه سوى طرقات على الباب ثم نهض عن كرسيه وأتجه ليفتح الباب وجد خالته وأولاد خالته، بادرت خالته بالحديث معه فألقت علية التحية ثم ألقي علية أسامة ولمياء التحية أيضاً ومهنئيه بالتحاقه بكلية الطب، وحينما دخلوا الي صالة الشقة، جاءت كريمان مرحبةً بأختها وبأبنائها ثم جلسوا يتحدثون ومهنئين، قد حصل أسامة علي مجموع متوسط لم يدخله الا كليه الآداب، كان يتمنى أن يدخل كليه أخرى، لكنه مضطر بسبب مجموعه، وما أن دخلوا الي صالة البيت حتى سحب اسامه يونس من يديه جانباً وقالت له:

- أين مكتبك الجديد الذي تجلس عليه للمذاكرة، هيا أريد أن أراه.

صمت اسامة للحظة، ثم وشوش له فى أذنه وواصل قائلاً:

- أريد أن أتحدث معك فى موضوع مهم فأنا لم أجد من أتحدث اليه ولا يمكنني أن أتحدث الي أحد غيرك.

- عما تريد أن تتحدث الي به؟

وحينما أصبحا فى غرفه يونس، جلسا وبادر اسامه قائلا:

- صحيح فأنا لا أعرف الحب جيداً، فهو كان بالنسبة لي شيء مجهول، فهي الفتاة والحلم الذي يأتي أولا يأتي.

أدهشه يونس تعبير اسامه وتوصيفه للحب، على الرغم من أنها مشاعر لم يفهما بعد، ثم سأله مستفهماً:

- ما الأمر؟

صمت اسامه للحظة ثم نظر الي يونس بطيبة وهدوء ثم قال له:

- سوف أروي لك قصة من دون تفاصيل كثيرة، وأحتاج رأيك بها.

- قولت لها عفواً، أقدم لك نفسي أنا أسامه ممدوح، وقالت لي آنا ليلي السيد.

فقاطعه يونس مستفهماً فقال:

- من هي ليلي؟

ابتسم له أسامة، ثم قال له بمودة:

- فى يوم من الأيام كانت تحتاج الى ورق المحاضرات التي لم تحضرها طوال الأسبوع.

- ليلي؟

- نعم. وكانت صديقتها المقربة التي تأخذ منها ورق المحاضرات غائبه فى ذلك اليوم، ولم تجد أحد امامها لتأخذ منه الورق الا أنا، اقتربت ليلي وطلبت مني أن أعطيها الورق حتى تقوم بتصويره، فأعطيتها الورق وذهبتُ معها الى مكتبه التصوير خارج الجامعة قمت بتصوير الورق، ثم شكرتني كثيرًا على هذا الورق والمحاضرات التي أعطيتها إياها، وقولت لها انا أسامة ممدوح وقالت لي انا ليلي السيد.

نظر إليه يونس بإعجاب لهذه الحكاية الجميلة وقال:

- أنت شاب مذهل يا اسامه.

ابتسم اسامه وقال:

- سيصيبك الذهول أكثر إذا استمعت الأحداث الأخرى.

مدّ اسامه نصفه الأعلى على طاولة المكتب وكأنه يريد أن يتذكر الأحداث ثم واصل قائلاً:

- لاحظت نظرات الإعجاب الشديدة منها لي ولمعان عينيها وهي تنظر إلى ولم أكن متأكداً فى الحقيقية هل ما رأيته هذا حقيقة ام انني أتوهم؟ وهل حقاً هي معجبة بي؟ وهل أنا أحبها؟ وبعدها اخذت أتودد اليها كثيراً واحاول استغلال أي فرصة حتى أتحدث معها وكنت أنتظر اي فرصه حتى أحاول الحديث معها عن اي شيء أو اي موضوع بالجامعة كنت أساعدها دوماً وأسأل عنها عند غيابها وكانت هي متعجبة مما أفعله معها ولكنها كانت تنظر لي من حين للأخر، فلقد كانت تختلس النظر إلى والنظرات من وقت للأخر، وكلما نظرت لها فى المحاضرات وجدتها تنظر لي بهيام وحب كبيرين، فكانت تبعد عيونها بخجل وبحب كبيرين، كانت نظرات ليلي تدل على انها معجبه بي ايضا، وتوقعت أنها تفكر فى كثيراً حتى جاء ذلك اليوم الذي أخبرتها بأنني معجب بها وانني احبها وأريد التقدم لخطبتها فى المستقبل وعندما أخبرتها كانت فى سعادة كبيرة لا تصدق نفسها من شدة الفرح والسعادة ، فلقد كانت هي الاخرى معجبه بي ولن تخفى مشاعرها وفرحت كثيراً لأنها هي الأخرى بدأت تحبني وتهتم لأمري لكنها فى أول الأمر طلبت مني ان أنتظر حتى ننتهي من دراساتنا.

استمع يونس لحكايته ولكنه لم يفهم هو مشاعر الحب هذه ولكنه يمكنه الشعور والتعاطف مع الآخرين وفهم عواطفهم أحياناً، صحيح أنه لا يظهر عواطفه بالطرق المعتادة التي يعرفها غيره، ولكن اتهامه بأنه شخص يفتقر إلى المشاعر، أو لا يمكنه فهمها هي فكرة خاطئة تمامًا، بل إن تمسك البعض بمثل هذه الفكرة سوف يؤدي إلى تشويه صورته وقد اتضح هذا عندما شعر بالتعاطف الشديد تجاه أمه التي مرت بنوع من المرض وسؤاله عن أخذها للدواء أثناء عودته للبيت.

كان يونس محبطاً من الاستقبال البارد لزملائه فى الكلية هو لا يحب العيش فى جماعة الأصدقاء ولكنه يحتاج الي معاملة تشعره بأنه ليس مختلفاً عنهم، لكن الذي عوضه عن هذا ما يريد الوصول اليه وبأن زملائه يجدون فيه أحياناً أنه طالباً موهوباً، فهذا الأسلوب المختلف والغامض فى شخصيته وسلوكه وأفعاله الغرائبية تكشف عن مخيلة علمية خصبة.

******

جاء الصباح دخلت أمه بهدوء فوجدت يونس قد استيقظ مبكراً وجلس يقرأ كتاباً آخر فليس لدية محاضرات هذا اليوم بالكلية، جلست على الكرسي الذي أمامه ظلت تنظر إليه وهو يقرأ ولم تبق طويلاً ولكنها كانت تفكر كيف يعتمد على نفسه فى الخروج والذهاب كل يوم الي الكلية التي التحق بها ظلت تفكر، وهمست فى نفسها: انها كلية الطب، ثم بدأت تقاطعه عن القراءة محاولة أن تكتشف تفكيره فى تلك المرحلة فهي أحياناً كانت تشعر بالعجز عن التفكير، دنت منه ثم قالت:

- يجب أن تعرف يا يونس ان لهذه المرحلة أهميتها وحساسيتها وكونها مغامرة جديدة مليئة بالتجارب والمعارف والخبرات التي ستكتسبها.

- أعلم يا أمي.

- أنها مرحلة عمرية استثنائية تتوقف عليها كامل حياتك فيما بعد الجامعة.

فقاطعها يونس مستفهماً:

- ماذا تقصدين يا أمي؟

- أقصد هناك العديد من الأمور التي لا بد لك من معرفتها معرفة جيدة بالكلية وقبل مباشرة عملك بعد الجامعة.

ثم مضت إلى غرفتها بينما ظل هو يقرأ إلى ساعات كثيرة وفي طريقها الي الغرفة، وجددت زينب قد استيقظت وخرجت من الحمام وهي تنشف وجهها بمنشفة وردية ذهبت هي لتصب الشاي فى ثلاثة أكواب وأخرجت علبة الجبن مع علبة الفول من الثلاجة واحضرت بيض كما كانت قد وضعت الخبز ثم وضعت هذه الأشياء فى صينية لتذهب إلى صالة الشقة كي يفطروا جميعاً، إلا أن يونس كان كما يبدو مستعجلاً فعلاً، لذا أخذ الخبز وبدأ الأكل وهو واقف فى المطبخ حينما نظرت إليه زينب باستغراب نظر هو إليها مستفهماً.

- لماذا تنظرين إليّ هكذا؟ ألم أقل إنني مستعجل ولدي موعد.

- أي موعد هذا؟

- سوف اذهب الي المكتبة.

ثم أخذ يشرب الشاي بسرعة بجرعات كبيرة، وما أن انتهى حتى خرج مسرعاً من الشقة بينما ذهبت زينب لإحضار شيء من المربي وعادت ثم وضعت كوبها وقطعة من الخبز وشيئاً من الجبن ثم جلست لتأخذ فطورها مع أمها لكن قبل ذلك ضغطت على زر التحكم، فبدأ بث التلفزيون.

******

كانت الساعة فى حدود العاشرة صباحا حينما دخل يونس المكتبة العامة التابعة لوزارة الثقافة، اتجه إلى مجموعة الكتب التي تقع فى الطابق الأول من المبنى، لم يكن المبني حديث البناء، هي مكتبه قديمة بالمدينة، فوجد أن موظفة المكتبة التي كانت فى بداية العشرينات من العمر ترتب بعض الكتب، ثم ذهبت لترتب الملفات الموجودة على طاولة مكتبها، فبادرته هي بالتحية، بعد أن التفتت إليه ووجدته شاباً وسيماً وقالت وهي تبتسم بعذوبة:

- هل أستطيع مساعدتك؟ المكتبة تضم كتباً فى مختلف المجالات، أدب عربي وعالمي، تنمية بشرية، تاريخ، ديني، فلسفة وعلم نفس، مجلات علمية، مراجع طبية ونقوم على ايداع الكتب فيها لتصبح متاحة للاستعارة لكل الطلاب.

فقال لها وهو يعد نفسه للصعود:

- اريد كتاباً فى الطب.

- فى الطابق الأول العلوي.

صعد إلى الطابق العلوي الخاص بالمراجع الطبية بينما استمرت الموظفة بترتيبها للملفات بعد فترة وجيزة توقفت أخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها ونظرت لنفسها ثم أخرجت قلما للشفاه ومررته على شفتيها ورشت على نفسها عطراً من قنينة أخرجتها أيضا من حقيبتها وبعد ذلك بلحظات صعدت إلى الطابق العلوي من المكتبة كي تساعد يونس، فهو أول مرة يذهب الي المكتبة، حينما صعدت كان يونس مشغولاً بالبحث وبوضع بعض الكتب على الطاولة الخلفية له، تقدمت منه وهي تسعى إلى لفت انتباهه تنحنحت قليلاً وهي تبتسم فانتبه لها ثم قالت له:

- نسيت أن أخبرك، أن هناك مجموعة رائعة من الكتب فى هذا المكان.

وأشارت له بسبابتها، نظر إليها مستغرباً لطريقتها فالحديث ولم يفهما هو ماذا تريد، ثم وجد كتاباً رائعاً وتم استعارته لمدة عشرة أيام وخرج من المكتبة واستوقف سيارة أجرة متجه الي بيته.

******

وفي مساء ذات اليوم ، جلس يونس فى صالة الشقة أمام شاشة التلفزيون وفجاه يأخذ جهاز التحكم ويتجول عبر الفضائيات باحثاً عن فلماً، أو مسلسلاً عربياً، هو فى العادة لا يحب مشاهدة التلفزيون، فهو فى بعض الأحيان يسبب له صداعاً، ولكن عندما جاءت القناة الإخبارية شاهد انفجار هائل فى أحداث الغزو

الصهيوني لفلسطين، فيري كأن البناية قد اهتزت من هول الانفجار، فزّ يونس من مكانه مرعوباً على صوت الانفجار الذي تهيأ له أن جدران شقته وأرضيتها من قوة الصوت قد ارتجت، ثم وضع أصابعه فى أذنه حتي لا يسمع هذا الصوت ثم نهض قلقاً ليأخذ جهاز التحكم ليغلق التلفزيون.

فكّر يونس للحظة مع نفسه وهمس فقال: لا أحب مشاهدة هذه الأحداث؟ ولكن هل هي ليست واضحة بالنسبة لي؟ أم هي غير مهمة؟ هل مثل هذه التحولات التاريخية والأحداث الجسيمة والمرعبة التي تحدث فى العالم لا أستطيع رؤيتها كأي شخص؟ فكّرمع نفسه حول هذه الحياة ويتذكر حادثة قتل الصبي محمد الدرة فى قطاع غزة من قبل فى انتفاضة الأقصى وسط احتجاجات امتدت على نطاق واسع فى جميع أنحاء الأراضي الفلسطينية وكيف التقطت عدسة المصور مشهد احتماء جمال الدرة وولده محمد خلف برميل إسمنتي، بعد وقوعهما وسط محاولات تبادل إطلاق النار بين الجنود الإسرائيليين وقوات الأمن الفلسطينية وكان هناك مشهد لناس تتمزق أجسادهم من هول الانفجار، وآخرون يهرعون لنجدتهم دونما خوف من انفجار مزدوج، ثم سأل نفسه: لماذا يحدث هذا القتل؟ ومتى ينتهي؟

******

وفي صباح اليوم التالي، استيقظ يونس مبكراً ولكنه عندما استيقظت شعر بالتعب والدوخة فانتظر قليلاً فى المنزل إلى حين تحسن حالته، ثم خرج من المنزل ووصل الي الكلية متأخراً

وعندما وصل الي قاعة المحاضرة وقرع الباب ودخل الي القاعة، وجد المدرس يلقي المحاضرة، صمت المدرس للحظة ثم نظر إليه متسائلاً:

- لماذا تأخرت اليوم؟

- هذه أول مرة يحدث لي أن أتأخر، معذرة يا دكتور فقد شعرت بالتعب فانتظرت قليلاً حتى تحسنت حالتي.

- ما اسمك؟

- يونس

هذا العذر أكسبه تقديراً عند أستاذه، الذي قدر له قدومه إلى الكلية رغم شعوره بالتعب. صمت المدرس للحظة ثم قال له:

- لا بأس. تفضل بالجلوس.

وعندما ذهب ليجلس نظر الي المقعد الذي اعتاد الجلوس علية فوجد أن أحد زملائه قد جلس مكانه، فغضب لهذا فهولا يشعر بالاستقرار إلا بهذا المقعد وقد كان كل الطلاب جالسين فى مقاعدهم تماماً، بينما قد واصل المدرس محاضرته قائلاً:

- التشريح هو التعرف على تراكيب الكائنات الحية ووصفها، ويعد التشريح فرعًا من فروع علوم الطب والأحياء، وتعود دراسة التشريح إلى أكثر من ٢٠٠٠ عام، عند الإغريق القدماء ويمكن تقسيم التشريح إلى ثلاثة مجالات واسعة تشريح الإنسان، تشريح الحيوان، وتشريح النبات وعلم تشريح الإنسان هو دراسة تراكيب جسم الإنسان، فعلم التشريح هو المفتاح لممارسة الطب.

صمت المدرس للحظة، ثم واصل فأكمل التحدث عن علم التشريح ثم عن مبادئ التشريح النظرية، فقال:

- مبادئ علم التشريح عامةً، ليست جزء محدد فى الجسم ولكن سوف أتحدث عنها بصفة عامة وسوف تدرسون الطرف العلوي كالزراع وأجزاء الرقبة والظهر والصدر والطرف السفلي سوف تدرسون فيه تشريح الفخذ والساق والقدم.

خلال هذه الأثناء رن هاتف المدرس المحمول فرد لدقيقة ثم واصل قائلاً:

- غداً سوف نبدأ بأول محاضرة عملية فى معمل التشريح، انتهت المحاضرة، تفضلوا.

وبالطبع لم ينصرف الطلاب الا بعد خروج مدرسهم من قاعة المحاضرة، بعد ان لملم أوراقه واخذ حقيبته وخرج من باب القاعة.

******

وفي اليوم التالي فى الساعة العاشرة صباحاً، ذهب يونس الي محاضرة التشريح للدراسة العملية التطبيقية بقسم التشريح وبالقاعة العملية المختصة بتلك المحاضرة وتجمع الطلاب ورأي الكثيرين من الطلاب يتجمهرون حولها، ويدفعون بعضهم البعض للدخول إليها، وحينما دخلوا غطوا أنوفهم اتقاء من رائحة الفورمالين اللاذعة ثم ذهب البعض منهم لأحد التوابيت ويرفعونها بحذر فيصرخون ويهربون، وفي هذا الأثناء جاء المدرس وبعد أن دخل توجه اليه الطلاب استعداداً للدراسة العملية وبعد الكشف عن الحتة، بدأ المدرس بالشرح فبدأ بعدة اسأله قائلاً:

- هل جربتم التعامل مع الأجزاء والأعضاء البشرية؟ هل سبق أن رأيتم جثة تنتظرك للبدء فى عمليات التشريح فيها؟ هل طُلب منكم أحد أن تمسك يداً أو رجلاً أو مخاً لتفحصه وتشرحه؟ لابد ان تعلموا أن الدراسة النظرية فى خط متوازٍ مع الدراسة العملية والتطبيقية بقسم التشريح وأن مقرر التشريح من المقررات المهمة والضرورية، أعلم أن هذا قد يشكل عائق كبير بدراستكم للطب وخاصة لدى الفتيات كونهن أرق حساً وألطف عاطفة من الفتيان.

صمت المدرس لحظة ثم واصل قائلاً:

- فى البداية قد تكون غرفة التشريح هي غرفة الرعب والإثارة لديكم.

وما أن بدأ المدرس بتوضيح كيفية التعامل مع الجثث. وإذا بطالبة أغشي عليها عند بداية الشرح، ثم صراخ بعض الطلاب والطالبات كان كبيراً عندما قام المدرس بتحريك يد الجثة وكان من بينهم يونس، وارتسمت ملامح الدهشة على وجههم وكأنهم سوف يبحثون عن تفسير لذلك، فانتبه المدرس لذلك فقال موضحاً:

- أعلم انكم لا تحبذون الدخول للمشرحة ولكن لابد ان تعتادون على ذلك ولابد من الدمج بين النظري والعملي بحيث يتم تطبيق المعلومة التي درستموها، ثم الأن ترون بأعينكم للتأكد منها ولمسها بأنفسكم.

ازداد الصراخ كثيراً عندما أكد المدرس لهم بأنهم لابد أن يتأكدوا وان يتلمسوا الجثث بأنفسكم وقد ابتعدوا عنها أكثر.

نظر إليهم المدرس وقال لهم بنبرة مليئة بالحزم:

- أهدأوا من فضلكم. أهدأوا. لا ينبغي علي طالب الطب أن يتخرج دون أن يعي ويستوعب تشريح جسم الانسان بكافة اجزائه وتفاصيله، فعندما يمسك الطبيب مريضاً فى يده يجب أن يعرف هذا الطبيب ماذا يوجد داخل هذا الجزء من أوردة وشرايين وعضلات؟ وكيف تعمل وتسير؟ وكيف هي منظمة كي يكون قادرا على اصلاحها ومعالجتها فى حال وجود حالة قطع.

وبعد مرور شهرين قد جلبوا الطلاب أكلهم وشربهم ووضعوها بجانب الجثث ويأكلون بلا هوادة، وقد باتت حساسيتهم لهذه المواقف مختلفة.

******

بعد الانتهاء من اختبارات الترم الأول، لازال يونس يجلس كل يوم فى غرفته يقرأ ويدرس ما قد أنتهي منه من قبل فقد صار قارءً نهماً فهو شخص روتيني لا يستطيع أحد ان يغير من سلوكه بسهوله بل هو أيضاً لا يستطيع تغيير نمط حياته فما اعتاد عليه لا يمكن له أن يتغير بسهولة.

وحينما دخلت امه ذات يوم فى حجرته رأته جالساً يقرأ كتاباً بكل شغف وتركيز فهي تعتقد أن ذلك ربما أمراً عرضياً لمرة واحدة، فهمت فى نفسها متسائلةً: إنه فى عطلة نصف العام؟ ولكن الأمر ليس كذلك فيونس لا يستطيع مقاومة التغيير

سريعاً فهو دائماً فى حاجه للحفاظ على سلوكه، بل وعلى النظام داخل بيئته وعلى نفس الترتيب دون تغيير للمحافظة على الاحساس بالأمان، حيث وجود البيئة على نفس ترتيبها يعطيه أحساس بالهدوء والاستقرار وعدم القلق ومن هنا يكمن تفسير حالات الهياج والثورة الانفعالية والحركية التي قام بها يونس فى صغره كثيراً.

******

في صباح يوم ما استيقظ يونس مبكراً فمطّ جسده ليطرد ما تبقى فيه من نعاس وكسل ورغبة فى العودة إلى السرير فتح ذراعيه مؤدياً بعض التمارين الرياضية توجه إلى الحمام وأطبق الباب خلفه ليأخذ حماماً ساخناً، بعد فترة وجيزة خرج من الحمام ثم بدأ يرتدي ملابسه على عجل كي يسرع إلى الكلية، فهو يوم ظهور النتيجة وقبل أن يخرج من البيت تناول فطوره ثم ذهب الي الجامعة ومنها دخل إلى الكلية عجلاً يبدو وكأنه تأخر قليلاً عن موعد ما، لأنه وقبل أن يجتاز باب الكلية مفتشاً عن مكان اعلان النتيجة واجهته فتاة مع صديقتها وهما يغادران باب الكلية فابتسمتا له ابتسامة خفية ملقيتا علية تحية الصباح لم ينتبه لهما بينما نظرا اليه محدقين اعينهم وقالت الفتاه لصديقتها هذا هو يونس ولكنه لم ينتبه لهما ثم توجه الي مكان اعلان النتيجة داخل القاعة وعلى وجهه ترتسم علامات اللهفة كانت القاعة مزدحمة بطلاب القسم هناك الكثير من الطلاب والطالبات، بل وصلت سمعه كلمات من بعض زملاءه بالقسم يقولون الأول هو يونس نبيل، لكنه لم يعرف، وجد طاولة فارغة لإثنين فجلس

إليها فهو لا يعرف الزحام ولم يساعده الحظ فى الوصول ليري اسمه فى الكشوف المعلقة فى القاعة، ان القاعة مزدحمة للغاية ثم جاءه زميل فساعده حتى تمكن من معرفة النتيجة، وحينما عاد اليه زميلة ، كان وجهه مشرقاً فرحاً ثم قال له بحيوية بأنه الأول علي القسم، ففرح يونس وابتسم وأثني علي اللّه وحمده وشكره.

******

خرج يونس من الكلية مسرعاً الي البيت ليزف لأمه ذلك الخبر وعندما وصل دخل الشقة، سمعته زينب وخرجت صافقةً وراءها باب غرفتها وذهبت اليه فى صالة البيت فأخبرها ودخل غرفة أمه وخلفته زينب لكي يخبرا أمهما فسبقتها دموع الفرحة، ثم هنأته وقال لها:

- أردتُ أن تكوني أول المهنئين لي يا أمي.

- هذا هو التميز الذي عرف بك، فهو نجاح أنت أهل له يا يونس.

التفتت اليه أخته مهنئتاً، فقالت:

- مبروك يونس، هذا النجاح له مذاق مميز. مبروك. أقولها لك من كل قلبي.

اطمأنت أمه ثم قالت له مبتسمةً:

- سوف تجعلني اعيش بسعادة عند وصلك لهذا النجاح دائماً وعند استلامك لشهادتك من الجامعة بنفس هذا التفوق وسوف أدعوا اللّه لك بأن تحقق آمالك.

******

في اليوم التالي استيقظ يونس صباحاً على حركة ذراع ما تستقر على رأسه وهو فى سريره التفت فوجد أمه جالسةً إلى جانبه من السرير تذكر أنها جاءت اليه ليستيقظ، ابتسمت له.

- صباح الخير.

- صباح الخير يا امي.

- كم الساعة الآن يا امي؟

تلفت هو فيما حوله، ثم رفع رأسه إلى الساعة الحائطية وقال لها بتكاسل.

- الثامنة!

ابتسم يونس وقال بمرح:

- عندي بعض الوقت فأنا أريد الذهاب الي المكتبة فى حدود الساعة العاشرة.

ولكنه نهض الي الحمام، صعد إلى حوض الاستحمام وفتح دش الماء على قوته وبقي هناك تحت وابل الماء البارد. كان يقف تحت دش الماء المنهمر وهو فى حالة ذهول فكر مع نفسه سائلاً: كيف اختف قلقي عند ذهابي لموعد ما؟ كيف هذا وأنا منذ أيام لا أستطيع النوم بطريقة منتظمة، هل أنا مريض نفسياً أو مصاب بمرض فى الشخصية كما يقول البعض؟ لماذا أحس بالخوف من نفسي أحياناً؟

بينما ظل وابل الماء ينهمر على جسده وبقي لفترة طويلة فى الحمام ثم خرج منه وقد ارتدى ثوب البيت ولم يفعل شيئا بل ألقى

بنفسه على السرير محدّقاً إلى سقف الغرفة دون أن يحيد بنظره إلى أية جهة وكأنه يحدق إلى نقطة فى الفراغ وضاع فى ظلام أبيض، كان ذهنه ساكنا وكأن رأسه جمجمة فارغة، فهو مفرغٌ من الانفعالات وبارد الأحاسيس، وكأن نفسا أخرى تهيمن على جسده.

تشعر كريمان دائماً أن بين يونس وابيه شيئاً مشتركاً، خاصة طريقة استخدامه للحمام لأوقات طويله وطريقة نهوضه من النوم، فقد كان من عادة ابيه أن يحدق بعينه كثيراً عند الاستيقاظ من النوم وتتذكر أنها نادرة ما تدخل الي غرفته كي توقظه من النوم، فهي دائماً تجده مستيقظاً وحتى قبل أن يذهب الي عمله، فهو كان يعتاد النهوض بنفسه وكان منظم لحد كبير.

خرج من الحمام بشكل آلي، فتح دولاب الملابس، وارتدى سروالاً جديداً وقميصاً داخلياً، وجواربه، لبس شبشبا أبيض حفيفا من هدايا أخته زينب ثم دخل مجددا إلى الحمام. رش على نفسه عطراً زكياً. ثم خرج من الحمام وجلس ليضع قدميه فى فردتي الحذاء. ثم وقف ناظراً إلى نفسه فى المرآة الكبيرة التي تتوسط أحد جوانب الغرفة ثم أطفأ نور غرفته وخرج، بعد ان ألقى التحية على أمه.

******

حين دخل يونس المكتبة رأى رجلا كهلاً يتوكأ على عكازه، سلّم عليه الرجل، فلم يجبه ثم همس الرجل فى نفسه: ربما أنه ثقيل السمع، تعكّر مزاج يونس حينما رأى الرجل الكهل معه

فى الطابق العلوي ينظر إليه وقد تذكر أنه قال له شيء ولم ينتبه اليه وأنّب نفسه لعدم الرد علية.

دخل إلى المكتبة رجل آخر عجوز ومعه إثنين آخرين وجالوا بنظرهم سريعاً فى أرجائها، وأتجه بنظره إلى الطاولة التي يجلس اليها يونس، ثم ذهبوا للبحث عما يريدون وكان يونس مستغرباً لوجود هذا المسن فى هذا الموعد والمكان، وكان يقرأ فى التوجهات الحديثة فى الطب البشري، والزيادة المستمرة فى حالات إصابة جهاز الأعصاب المركزي فى الانسان.

انتهي يونس من البحث عما كان يريد من الكتب والمراجع ثم خرج ووصل إلى الطابق الأرضي كي يسجل الكتب المستعارة وجد الرجل العجوز ذاهباً ليسجل بعض الكتب المستعارة، انتظر يونس وسمح للرجل العجوز أن يسجل حتى يخرج أولاً ثم خرج خلفه، لكنه فجأة انتبه إلى أن المكتبة تقع فى الطابق الذي بين الأول الثاني، فأراد الرجوع مرة اخري حتى يعرف ما فى الدور الثاني من الكتب إلا أنه وجد هذا الباب مغلق فاتجه إلى الطابق الأول نازلاً عبر الدرج، ثم خرج من باب المكتبة.

******

الفصل السابع
مشـــــاعر

بـدأت الدراسـة وللوهلـة الأولى، شـعر بالحاجـة إلى بـذل مجهـود مضاعف، ليكون على مستوى أفضل من زملائه، بعد أيام كان قد تغلب على الخجل وصار يشارك فى المناقشات، ثم تجاسر وبدأ يقترب متوددا إلى جماعة الأصدقاء خاصة عند التئامها فى فترات الاستراحة عند النافورة أو أمام المكتبة، بعد قليل وجد نفسه يفضل جماعة على غيرها، ثم اكتشف أنه صار يقضى وقتا أطول من المعتاد فى التزين، ويختار للجلوس موقعاً بعينه فى قاعة المحاضرات وما هي إلا أيام وقد أصبح طالباً يشار إليه بالتفوق والتميز لسعة اطلاعه.

أحب يونس الكلية وأحب الدراسة، ولم يدرك وقتها أن وراء كل هذا الحب والرغبة فى التأنق، فتاة بقوام رشيق وبشرة بيضاء مكسوة بحمرة طبيعية، ترتدى ملابس بدت له فاخرة، استمر يتابعها ظنا منه أن دافعه الفضول يراها تأتى كل صباح فى سيارة بيضاء فارهه، تنزل من بابها الخلفي ولكن ليس قبل أن يفتحه لها السائق الذي يصحبها، أو بدقة ضرورية، يتبعها أمتاراً معدودة حتى باب الجامعة وينتظرها لتدخل قبل أن يعود إلى سيارته.

******

بمرور الأيام ازدادت متابعته لها، وتعددت لحظات تركيزه عليها و صار يشرد فى المحاضرات عيونه عليها وآذانه مع المدرس وعقله مشتت بينهما ، لم تكن لديه التجربة التي تؤهله ليعلم أن تركيزه عليها لابد وأن يصل إليها ويحرك شيئا فيها، لم يطمع

فـى أن تنتبـه إليـه، فعالمهـا غـير عالمـه وأصـحابها غـير أصـحابه واهتماماتها غير اهتماماته هـي الشـيء المسـتحيل فـى حياتـه وربمـا فى حياة كل منا، الشـيء الـذى تـراه وتتخيلـه وتحلـم بـه فـى الليـل ويصاحبك فى شرودك ومذاكرتك وربما طموحك، ولكـن يبقـى مستحيلا، وبما أنه مستحيل فليذهب الخيـال بعيداً وحـراً مـن أي قيـود. هـو آمـن ومطمـئن إلى أنهـا لـن تلاحـظ وجـود هـذا الشـاب البسيط، حتى وإن كان وسيماً ولامعاً.

******

في يوم الأول من شهر مايو، حينما انتهى الدرس وكالعادة لم ينهض يـونس ليغـادر، جلـس ملتهـى بجمـع كراسـاته مسـترقا نظرات، رآها تجمع هي الأخرى أوراقها وتستعد للخروج، نهضت من مقعدها فابتعد بنظره عنها خشية أن تضبطه متلبسا بالنظر إليها. خلت القاعة إلا منهما فانكب مرة أخرى على أوراقه كمن يلمها وهو لا يلم شيئاً، ظل منكفئاً على فخذيه لا يرى ما يحدث حوله وضربات قلبه تتلاحق فى سرعة لا يألفها وحبات عرق تبلل جبهتـه وتتسـلل إلى أصـابعه فهـو لا يعـرف مـا هـذا الشـعور، ثـم ازدادت ضـربات القلـب وتصـلبت أعصـابه وتوقـف عقلـه عـن التفكير، وفجـأة وبـدون وعـى أو إرادة ارتفعـت رأسـه ليراهـا تقـف إلى جانبه، ثم سمعها تدعوه للتحرك قليلاً ليتسع لها مكان إلى جانبه، ثم شعر بها تجلس حين انسابت اليه نفحات من عطر، أدار رأسه ناحيتها فوجدها تنظر إليه بل تغوص بعينيها الملونتين فى عينيه الزرقاوان، ثم تبادره بالكلام فسألته:

- أنت حقاً الأول علي الدفعة الترم الأول كما سمعنا.

فانكب مرة أخرى على أوراقه كمن يلملمها وهو لا يلم شيء ثم أجابها فى خجل:

نعم.

- انا هاله. أراك دائم الجلوس هنا فى نفس المقعد فى جميع المحاضرات وفي جميع قاعات الدرس.

- غالباً ما أفضل هذا المكان، وهو يساعدني كي أنصت أكثر الي المحاضرات.

- لدي سؤال ما هي حكايتك؟ من تكون؟

نظر بعيداً وهي تجلس إلى جانبه ليحكي لها حكايته، حكاية طفل ثم شاب ولكن بعائلة صغيرة كان نبوغه المبكر الدافع لأهله كي يكمل دراسته. حكى لها عن شقته القديمة وحفاوة أهل الحي به، وحكى لها عن رغبته فى أن يحقق ما جاء من أجله لإرضاء أمه وعائلته والوفاء بوعده لهم أن يحصل على أعلى الشهادات، نظرت فى عينيه نظرة فيها حنان ولكن فيها أيضا ما لم يره فى عيون أخرى من بعد أو من قبل.

- أريد أن أعرف حقيقة شعورك تجاهي.

لم يفهم يونس ماذا تقصد ثم حاولت ان توضح له.

فتلعثم وتردد وعاد العرق يتصبب فأسرعت هي بالقول:

- أنا معجبة بك.

لم يعلق على كلامها وانما قال:

يجب عليا الانصراف الآن فأنا....

وحينما خرج من قاعة الدرس تعجبت من هذا وظهر علي وجهها غضب، وهمست فى نفسها: كيف له أن ينصرف فجأة وانا اتحدث اليه. شخص غريب!

******

خرج يونس من الكلية، متجهً الي البيت وعندما وصل وجد أمه تحضر الغداء فجلس وتناول الغداء ثم انتقل إلى غرفته، وما أن جلس على كرسي مكتبة إلا وتذكر كلامها وسؤالها ما حكايتك؟ لم يعرف يونس أن هذا السؤال سيفجر بركان عواطف له، السؤال نفسه كأنه جلس ضمن قصة حب عجيبة غريبة واستمر يراها كل يوم وهي تحاول المبادرة بالحديث اليه، وبعد عدة أسابيع ذاع الخبر بين الطلاب، خبر العاطفة المتبادلة بين هاله ويونس فكان حبهاً ظاهراً أمام الناس وهي لم تخف حبها له أمام الناس، ثم راح الحلم يستفحل والسعادة تغمرهما فى الجامعة التي لم تجد قصة أكثر إثارة ومصدر فخر لها فهو الطالب المتميز.

كل يوم وقبل ذهابه الي الكلية يتجه نحو المرآة ليعدل من قميصه أو ليعيد تصفيف شعره البني الكثيف لعله يبدو لها أجمل، وكأنه لا يعرف أنه وسيماً، يقف كل يوم أمام المرآة كطفل ارتدى أفخر ثيابه ليحتفل أو ليحصل على جائزة، وفجأة اختفت هالة لم يعرف كيف يسأل؟ ومن يسأل؟ ولم تترك له هاتفاً أو عنواناً ثم جاءته صديقة لها تحمل منها رسالة تقول له أنها انتقلت مع أهلها الي القاهرة فقد نُقل عمل والدها.

******

في مساء يوم ما يجلس يونس فى غرفته وفى قلبه حب وحسرة شديدة وألم فراق فهو لأول مرة يشعر بهذا الحب، ثم ذهب الي النوم وهو على سريره همس فى نفسه: هل من الممكن أن يجمعنا القدر مرة اخري؟ ثم استيقظ مبكراً فى الساعة السابعة صباحاً وذهب الي الجامعة وكان عليه التركيز بدراسته فهي مرحلة ما قبل الاختبارات.

حاول يونس تغير موقفه الرافض لأي شيء قد يكون عائقاً لدراسته ولنجاحه حتى لو كان هو حب عمره، وأن يكون له اتجاه ايجابي نحو اي موقف سلبي يتعرض له فى حياته وبعد مرور فترة من الإقناع وجد نفسه قد نسي ما يشعر به وحدد لنفسه أهدافاً واضحة قابلة للتحقيق، فهو يعرف جيداً أن تحديد الأهداف أول خطوة إلى طريق التفوق والنجاح ويساعده على التركيز والانتباه أثناء الاستذكار فكان يختار لنفسه فى البيت مكاناً هادئاً بعيداً هي غرفة خاصه به وبعيدة عن غرفة الاستقبال او صالة الزوار. كان ينظم استذكاره ومراجعته بحيث يصبح مدركاً لما يجب عليه إنجازه فى هذه الفترة. كان يذاكر بجد ونشاط فهو لا يقرأ قراءة عابرة دون تركيز أوفهم فكان يجيد تحديد نقاط الموضوع الذي يستذكره كي يساعده على تركيز انتباه، ولكنه كان يخجل من أن يستشير أستاذاً له أثناء المحاضرات أو أن يسأل أحداً من زملائه.

******

انتهت اختبارات نهاية العام لجميع المراحل الدراسية وبعد عدة شهور وفي صباح يوم ما استيقظ يونس مبكراً ثم نهض سريعاً توجه إلى غرفة الحمام وأطبق الباب خلفه ليأخذ حماماً بارداً، فاليوم يوم شديد الحر، بعد فترة وجيزة خرج من الحمام ثم بدأ يرتدي ملابسه على عجل كي يسرع إلى الكلية، فهو يوم ظهور نتيجة نهاية العام، وقبل أن يخرج من البيت تناول فطوره ثم ذهب الي الجامعة ومنها دخل إلى الكلية مسرعاً حتي التفت ساقة، ثم اجتاز باب الكلية مفتشاً عن مكان اعلان النتيجة ثم توجه الي مكان اعلان النتيجة خارج القاعة فهي معلقة بجوار باب القاعة وعلى وجهه ترتسم علامات اللهفة كان أمام القاعة مزدحمة بطلاب القسم هناك الكثير من الطلاب والطالبات، بل وصلت سمعه كلمات من بعض زملاءه بالقسم يقولون الأول هو يونس نبيل أيضاً.

وجد طاولة فارغة فجلس إليها فهو لا يعرف الزحام ولم يساعده الحظ فى الوصل ليري اسمه فى الكشوف المعلقة خارج القاعة، فالمكان مزدحم للغاية ثم جاءه صاحبه ليساعده فى البحث عن النتيجة، وحينما جلس بعض الطلاب على المقعد المجاور له، وقبل أن يبدأ أحد بالحديث اليه، عاد اليه صاحبه وبادره مخاطباً بوجه مشرق فرحاً وقال له بأنه هو الأول علي القسم أيضاً هذا العام، فخرج مسرعاً الي البيت ليزف ذلك الخبر السعيد الي امه التي هي أيضاً فى شوق لمعرفة نتيجته. وعندما وصل البيت فتحت له زينب وخرجت اليه أمه فى صالة البيت مسرعةً كي تستقبل خبراً سعيداً، فاخبرهما فسبقت دموعها فرحاً.

******

مرت السنوات الثلاث الأولى من الكلية ومازال يونس يتميز على زملائه ويتفوق فى دراسته فكان دائماً الأول علي قسمة، كان دائماً يحب محاضرات مختبر الكيمياء الحيوية والتي فيه يتم تطبيق بعض التجارب كتفاعل الانزيمات وقياس نسب الاحماض والقلويات وقد تميز فى الجانب العملي الذي يهتم بمعامل التشريح ومعامل الفسيولوجي والهستولوجي فهو يهتم كثيراً بالمواضيع الطبية التي يتم دراستها، وكان يشغله حالة المرض ودراسة اجهزة الجسم والامراض بشكل إكلينيكي، بل أكثر من ذلك فهو يهتم بعلم الامراض، وأصبح رمزاً للتحدي والإرادة والنجاح فى كليته و كان هذا درساً تطبيقياً لكل من يشعر بالمعاناة التي تخفي وراءها جراحاً كبيرة.

******

والآن نجحت زينب فى مرحلتها الثانوية وبتفوق والتحقت بكلية الطب فهي تحب دراسة الطب منذ كانت صغيرة، لكنها الآن لا تحب الكلية، فعندما التحقت بدراستها وجدتها صعبة، وأيضا كتبها كثيرة فهي دائمة الشكوى ليونس من انها لا تستطيع قراءة هذا القدر من الكتب أو أن تحفظ مثله.

كان يونس غيور جداً على اخته زينب برغم كل هذا الغموض الواضح فى مشاعره والذي يبدوا عليه، عكس ما كان يعتقد البعض أنه يلعب دور الأبله، أو أنه متغطرس ومتعال، على الرغم من أن شخصيته نبيلة ومتواضعة جداً لذلك كان يظهر لهم بشكل مثير للإعجاب. وفي يوم ما ذهبا يونس ومعه أخته الي

الجامعة وفي الطريق المتجه الي كلية الطب، بادرته زينب بالكلام قائلةً:

- كيف لك التفوق فى هذه الكلية، انها صعبة للغاية، ان بها كتباً كثيرة وإذا حفظتُ شيئاً أنسى الذي حفظته بسرعة كبيره، لذلك لا أتوقع ان أحرز علامات جيدة فى الامتحان أشعر دائماً بالاكتئاب الشديد، وأنا الآن لا أدري هل أذهب إلى مجال آخر؟ أم ماذا أفعل؟

انتبه يونس إلى سؤالها فنظر إليها ثم اجابها قائلاً:

- أنك لم تفهمين بعد كيفية التعامل مع هذه المقررات ولم تضعي آلية معينة للمذاكرة وقد قلت لك من قبل أن الساعات التي تبذلينها أقل من المطلوب لأن دراسة الطب من الدراسات الكبيرة والشديدة فعلاً والصعبة، وتحتاج إلى تفرغ تام وتحتاج إلى عقل وقّاد وإلى ذهنٍ يقظ، وتحتاج أيضًا إلى سرعة بديهة وتركيز أثناء الشرح من قِبل الأساتذة والمدرسين.

صمتت للحظة، ثم بدأت تبرر مثل طفلة صغيرة:

ان معظم هذه الكتب مكتوبة باللغة الإنجليزية وأنا لا أستوعب أشياء كثيرة.

فقال لها بنبر جاده:

أنك تحتاجين فعلاً إلى ترتيب حياتك بطريقة مختلفة.

******

بلغت ثروت عادل الآن عشرين مليار دولار، وتأتي ثروته من استثمارات فى شركات للسيارات ومن حصص له فى شركات

تجارية واستثمارات عقاريه وفنادق وهي شركات كان جزءًا منها، كعضو فى مجلس الإدارة، ثم له استثمارات فى مجالات السياحة والطاقة، وشريك فى ملكية شركة غاز عربية وهو أيضًا رئيس مجلس الإدارة والرئيس التنفيذي لمجموعة شركات، وهي شركة ضيافة تقوم بتشغيل منتجع تشامبولوك فى جبال الألب الإيطالية.

قام عادل بالعودة إلى مصر مع زوجته الإيطالية وأبناءه فقد اشتري منزل كبير فى مدينة القاهرة ويضم مسبحًا خاصًا مدفئًا فى الهواء الطلق، يقع مكان الإقامة على بعد من مجمع كبير يُعد من أملاكه، وبدأ بإنشاء أول شركة لتصنيع المركبات والاستثمارات فى مجال تصنيع المركبات وتجارة السيارات والمقاولات، حيث قام بإقامة شركة وبرغم كل المشكلات الصعبة التي واجهها من قبل فى مصر، إلا أنه كان حريضاً على انشاء المشروعات الكبيرة.

كان عادل علي وعي أن هناك مشروع أكبر هذا المشروع يتمثل فى أبنائه الاثنين شاكرو رمزي، فهما يمثلان الرصيد الذي يملكه عادل بل هو الاستثمار الأفضل المضمون، كان يرى عادل أن رأسماله الحقيقي هو أبنائه، وقد كان على حق بالفعل فقد قام بإرسالهم للالتحاق فى معهد بولي تكنيك فى سويسرا والمتخصص فى تخريج القادة وكبار رجال الإدارة العليا فى أوروبا وبدأ عادل بإنشاء شركات استثمارية ومصانع وبدايتها كانت لشركة مارد ريملي الايطالية فى مصر، إلى إن الشركة

قامت بتوسعات بقيمة مليار جنيه فى فبراير ٢٠١٠ ، وأضافت خطي إنتاج جديدين، لتبلغ استثماراتها فى مصر ملياري جنيه، ما منح لمصانع الشركة بمصر ميزة تنافسية للتصدير للدول المجاورة.

******

في صباح أحد الأيام، ذهبت كريمان الي دار المسنين لزيارة العم حسن، دخلت من باب الدار، ثم بدأت تتجول فى أروقة المكان وقاعاته حتى تصل الي مكان الزيارة ثم جاءها أحد العاملين فى الدار فذهبت بصحبته حتى وصلت الي مكانه وهي تمر بالقاعات تري الرجال المسنين جالسين مهمومين، فهمست فى نفسها متسائلةً: الى اين وصلت قلوب بعض أبنائهم؟ هل هي كالحجارة؟ وان من الحجر ما ينبع منه الماء وهي تتجول فى الجزء الاول فى الدار التي يسكنها خيرة من الناس منهم مثقفون وشخصيات اخرى، بعضهم ترك بصمات على مر الدهور بما هو مفيد.

وصلت كريمان الي مكانه فوجدته جالساً يفترش لنفسه سجادة فى الحديقة يجلس عليها وحده، ذلك المكان القابع فى أطراف المدينة والذي يهزك زمان وجوده الموغل فى عمق المأساة وفيه يلتحفون حكاياتهم السحرية التي تقشعر لها الابدان وهي تعرج همست فى نفسها: واّه يا زمن، ومتذكره الكثير من الآيات القرآنية عن بر الوالدين.

تلك اول التأوهات التي أطلقتها وهي تتجول فى أروقة المكان وقاعاته كي تصل الي مكانه فوجدت البعض بصحبة القائمين

على المسنين والذين يتولون رعايتهم من دون كلل أو ملل، وهي تستعيد تلك اللحظات المريرة والقاسية التي تسللت من ذاكرة الآباء والأمهات او بالأحرى الحياة التي اختارها الأبناء لأمهاتهم وأباءهم المسنين الذين هم بأمس الحاجة إليهم. وحينما وصلت كريمان الي العم حسن ألقت عليه التحية ثم قالت:

- ما الذي أتي بك الي هنا؟ انت تمتلك منزلاً كبيراً؟

انتبه إلى أنها تشير بكلامها الي ارتكاب أولاده تلك الحماقة، فلم يجبها ولكنه قال:

- الحمد الله علي كل حال.

صمتت للحظة ثم قالت:

- اتصلتُ أكثر من مره لأطمئن عليك، ثم قالت لي زوجت أبنك عمر أنك بدار رعاية المسنين، هنا. فتعجبتُ.

صمتت للحظة، وعلي وجهها علامات التفكير ثم واصلة فسألته:

- ماذا حدث لك؟

- استيقظتُ فى صباح أحد الايام، لا اتذكره بالتحديد فلم أجد أياً من أبنائي الثلاثة وقد جلست وحيداً فى شقتي بالطابق الأرضي، لقد تركوني وحيداً فى الشقة أصارع الأوجاع بعد وفاة زوجتي، وقبل أن اتعرف على السبب الحقيقي الذي دعا أبنائي لتركي من دون سابق انذار، لقد بقيت ساعات وساعات طويلة ألوذ فى زوايا بيتي الذي بنيته لأبنائي عبر سنين طويلة من الشقاء والألم.

صمت العم الحسن للحظات وكأنه تاهت أفكاره، ثم واصل قائلاً:

- بعد نحو أسبوع حضر الى بيتي رجلاً لا أعرفه، وراح يخبرني بما لم أكن أتوقعه، وقال لي الرجل: اسمع لقد اشتريت هذا المنزل وما يحتويه من أثاث وما عليك الا ان تغادر بالسرعة الممكنة، ولكن لأسباب انسانية امهلك اسبوعاً واحداً ثم بعد أسبوع، فجأة جاء الي رجلين من الدار بصحبة ابني عمر وتركوني هنا فقولت أفضل من الشارع وهذا المكان هو الذي يأويني الآن لقد كنت ضحية نصب مورست ضدي من قبل أبنائي والآن اتمنى على الله ان يجمعني بأبنائي من جديد رغم الظلم الذي الحقوه بي.

- تتمنى على الله أن يجمعك بأبنائك من جديد رغم الظلم الذي ألحقوه بك!

- نعم. انني لم أكن فى يوم من الايام ابناً عاقاً لوالدي، لكن ما حل بي هو امتحان عسير، فقد كان عندي من الأملاك ما يكفي للعيش الرغيد لي ولأبنائي، لكن القدر كان اقوى.

صمت للحظة ثم قال متوقعاً:

- ربما سيأتي يوم نجتمع معا من جديد فى بيتي.

اعانك الله. فعقوق الوالدين من أكبر الكبائر. لله فى خلقه شؤون.

صمتت كريمان للحظة مندهشة مما تسمعه ثم سألته:

- كيف صحتك هنا؟

- الحمد الله يا بنتي، هناك خدمات صحية واشراف صحي مستمر من قبل طبيب ومعاون طبي منتسبين للدار من قبل وزارة الصحة مع توفير الادوية لنا جميعاً.

- حمد الله. ادعي لأبنائك بالهداية، سوف اخرج الآن، وأعدك أن أتي اليك مرة اخري.

انتهز العم حسن فرصة ارياحها لكلامه وهمس فى نفسه وقال: لابد أن أقول لها واطلب منها أن تسامحني، ثم قال:

- أشكرك يا ابنتي على هذا الفيض من كلمات الثناء لي ومن تلك الزيارة والمشاعر التي تشعرني بالسعادة.

قال ذلك بنبرة حزينة، ثم صمت للحظات طالت لدقيقة من الوقت خافضاً رأسه التي شاب شعرها ثم رفع رأسه قائلاً بتوسل وخوف ورجاء:

- أرجو ان تسامحيني يا ابنتي، فما هدم حياتي إلا ذنبك وذنب أولادك.

نظرت إليه فى دهشة وقالت مستفسرةً:

- أي ذنب؟

- كنت علي علم بما فعله عادل من بيع الأرض والبيت معاً ،وحتي يتمكن من السفر الي أوربا، وقد وعدني بأنه سيرد لكم المال ولكنه سافر وترك كل شيء وراءه ، اعلم أنني أخطأت كثيراً فى حق الله، وأعلم أني عندما أتوب إلى الله وأعمل عملاً صالحاً مع الصدق يغفر لي الله، ولكن ذنب العباد لا يرفع إلا

بعفو العبد، لهذا أطلب منك السماح والعفو، أنقذيني، والله إني أتوب إلي الله وأندم وأبكي دائماً عما أخطأت فى حقكم، فأنا اعلم أن ما انا فيه الآن هو ذنبك وذنب أبنائك أنا الآن فى السبعين من عمري، وأخاف من الله ومن عذاب يوم الحساب. سامحيني يا بنتي أريد أن أقابل الله بريئاً من الذنوب وأنا لا أستطيع الآن رد المظالم.

كان كلامه صادماً. صمتت لثواني، وغضبت غضباً شديداً وبدأ أثر ذلك على وجهها وهي تقول:

- كيف هذا وأنت الشخص الذي كان يثق فيه زوجي نبيل، كان عليك أنت تحفظ مال أولاده الأيتام.

صمتت للحظة ثم قالت له بنبرة حزن وبكل هدوء:

- كان لزاماً عليك أن تتصرف بالأصلح لهم، ولا يجب بيع ما لا تملك بيعه دون إذن مالكه، فهذا البيع كان فاسداً أنه بيع الغاصب.

- سمحيني يا بنتي.

- سأسامحك احتساباً لله ولكن. لن أنسى هذا.

حينما نهضت من مجلسها، نظر اليها وقال لها بنبرة حزن:

- أتمنى زيارتك مرة أخري، لقد اشتقت لرؤية يونس وزينب.

صدمها هذا الطلب لاسيما فى مثل هذا الوقت الذي أحست فيه بالغضب وإفصاحه بالظلم لأولاده، فلم تجبه ولكنها قالت له بنبرة حزينة:

- ان شاء الله.

وحينما خرجت جلس ينظر اليها، ويتذكر ابن أخية نبيل ثم همس فى نفسه: أسألك التوبة والمغفرة.

******

حينما خرجت كريمان من الفناء على الردهة المقابلة لباب الدار، ثم من الباب الرئيس، استوقفت سيارة اجرة وقالت له شارع الجيش، وصلت المنزل ودخلت الي المطبخ بسرعة لتستكمل تحضيرها للطعام الذي جهزت له من أمس، وما ان مرت دقائق وقد وصلا أبنائها الي البيت، انتهت من تجهيز الطعام، وجلسوا على المائدة متقابلين وحينما جلست هي لم تتحدث وطال صمتها لدقائق وتقول فى نفسها: يا لظلم الزمان لقد انحني جسدي احتراماً لقسوته، وارتجف جسدها امام أبنائها وقد شعرت بقلة هيبتها، إنها الآن امرأة عجوز عاشت نبعاً لنهر رطب من الحب والحنان لأبنائها ولزوجها من قبل وبعد وفاته.

******

مر أسبوعين وفي اليوم التالي استيقظ يونس صباحاً، وكان يوم جمعة، استيقظ وحده كعادة دون أن توقظه أمه، وبعد ان ذهب الي الحمام وتوضأ وصلي جلس فى صالة الشقة وانتظرت أمه استيقاظ زينب كي يتناولون إفطار الصباح كعادتهم فى هذا اليوم، ولكنها وجدتها مستغرقة فى النوم راقدة على وجهها، ونادتها مرة ومرة، وهي لا تستجيب ثم حركتها بلطف ومكررة النداء وارتفع صوتها واشتد تحريكها لها. فزع يونس ودخل الي

الغرفة واشتد تحريكها ولا مجيب واصرت الأم حتى ملأ صوتها الحجرة وهرولوا الجيران وتجمعوا على صوتها فقد فتح لهم الباب يونس وما لبس ان ضربة جارة لهم على صدرها، وقالت:

- الله يقومك بالسلامة يا حبيبتي.

حينما جاءت سيارة الإسعاف، حملوها الي المستشفى ومنها الي غرفة العناية ولم تتركها أمها، وما ان مرت دقائق واندفع يونس الي الغرفة ولكن قال له أحدهم يتعين عليك مقابلة الطبيب اولاً وربما ان الطبيب مشغولاً وقد وقف يونس عند باب الغرفة وتذكر تصرفات مشابه يوم أن اختفي اباه الي الأبد. وبدأ بعض الجيران ممن ذهبوا معهم يطيبوا خاطرهم ويقولون له:

- لا تحزن فهي الآن عند رحمن رحيم.

- ماتت زينب. هل ماتت أختي؟

ثم جاءهم الطبيب وكان مسناً قصيراً ونظر إليهم بعينين صافيتين ثم صافح يونس ومسك يد ه طويلاً حتى ما عدا يعلم كيف السبيل الي سحبها من يده، وقال له:

- جاءت اختك فى حالة حرجه منذ دقائق. لقد ماتت أختك بسبب ارتفاع مستويات سكر الدم واعتقد أنك ترغب فى رؤيتها.

اندفع يونس الي الغرفة دون ان يرد وسبق الي الباب وعلى الدرج شرح له الطبيب الأمر، وقال له:

- لقد حملناها الي غرفة حفظ الموتى.

وقطعوا ردهه كانت فيها العديد من المرضي وقد تخلقوا يثرثرون فى جماعات صغيرة وكانوا يسكتون كلما مروا

بجانبهم وخلفهم كانت الأحاديث تتواصل، ويقول هو فى نفسه: أنا السبب فى موتها ما حدث لها بسبب الأزمات النفسية التي كنتُ أمر بها منذ طفولتي. ويتذكّر حينما كان صغيراً، حينما جاءته أخته زينب للعب معه ثم تشاجروا وقد وقف يبكي خائفاً من هذا الشجار، وقد أصيب وقتها بنوبات صرع متكررة جعلته فى حالة تشنج شديدة وكان وقتها ليس لها سبب كامن، وأصيب جسده النحيل بكسر فكانت صدمتها وحزنها سببان وتهديداً لها وخطوة الي مرضها بالسكري.

وحددوا موعد الدفن فى مساء ذات اليوم بعد صلاة المغرب، وقد سمح الوقت لوداعها، وكان يونس فى حزن شديد، ولا يتصور أن يري أخته ماتت هكذا أو ان يتلقى خبر وفاتها، فقد حزن قلبه لفراقها ودمعة عينه. فالموت وان كان أمراً إلهياً الا أنه بلا شك من مصائب الدنيا، وقد شعر بفقدانها فكانت تمنحه الحب والحنان.

******

مرت السنوات الستة الأولى من الكلية ومازال يونس يتميز على زملائه ويتفوق فى دراسته فكان دائماً بالمركز الأول على قسمة وقد انتهي من دراسة طب العلوم الأساسية كالتشريح وعلم الأمراض والأنسجة والأحياء الدقيقة وعلم وظائف الأعضاء وعلم الأدوية وطب المجتمع وغيرها وانتهي ايضاً من دراسته للعلوم السريرية وهو الآن فى السنة النهاية سنة الامتياز لا دراسة فيها ولا اختبارات، وقد اختار يونس تخصص الطب النفسي.

بعد انتهاء فترة الدراسة، وفي مرحلة سنة الامتياز، بدأ يونس بالتدريب فى أحدي المؤسسات الطبية و معه بعض زملاءه من طلاب الطب النفسي للدراسة بطريقة عملية، وبدأ يذهب الي عمله أيامًا مُحددة خلال هذا العام الدراسي الأخير فهو ينتقل إلى المستشفى ليتعامل مع المرضى باعتباره طبيبًا، فقد انتهى من دراسته الجامعية، وهو الآن فى فترة تدريب عملي وعمل متواصل فى الإجازة الصيفية، فهو حريص تمام الحرص على تلقي التدريب العملي حتى يكون على قدر من الكفاءة والاحترافية أثناء تأدية عمله، وبعد التخرج حصل يونس علي المركز الأول علي دفعته فى التقدير التراكمي النهائي وعندما تم خضوعه للجنة تعيين المعيدين بالكلية اشترطت اللجنة الحصول على تقدير ممتاز فى جميع السنوات الدراسية والحصول علي المركز الأول كشرط صلاحية التعين، ولكن كانت المفاجأة عندما ذهب يونس الي الكلية للعرض علي لجنة الاختيار والتعين، التي قال رئيسها:

- أنت لا تصلح ان تكون طبيباً ولا معيداً بالكلية فقد جاء تقريراً من مستشفى التدريب بأنك تعاني من النقص الحسي الناضج للتعاطف مع الآخرين.

دافع عنه رئيس القسم الدكتور سمير، الذي كان على اتصال مباشر مع يونس خلال مراحل دراسته وهو أحد أعضاء لجنة الاختيار وكان دائم المساعدة والتشجيع له، والذي نظر إليهم حينها وكأنه فهم ما يرمون إليه، فقال لهم بنبرة حزن وبهدوء تام:

أنه يستطيع تفسير السلوك النفسي والاجتماعي لمرضاه وليس كما تقولون بأنه فى حالة انعزال تام أو انه لا يستطيع التأقلم مع الناس.

فجأة بدأ القلق على ملامحهم بسبب دفاعه عنه، وأخذ أحدهم يبرر حجته فقال:

هذا لا يكفي أن يكون معيداً، فكيف يكون مشرفاً وموجهاً ومرشداً لطلابه فى تعامله مع مرضاهم بعد تخرجهم، وقد خضع أيضاً لإشراف أطباء أقدم منه وأكثر خبرة واجمعوا على انه لا يصلح حتى طبيباً.

ابتسم عميد الكلية ابتسامة صفراء مليئة بالحقد البارد وقال بهدوء مصطنع:

- لقد تم ابلاغي بحالته وكتابة تقرير من قبل المستشفى التي تم تدريبه بها ويقول التقرير أنه يعاني من عزل داخلي وتنافر خارجي ويقابله معاناة فى التعامل مع مرضاه أنه يعاني من طيف التوحد.

تعجب دكتور سمير من تصرف إدارة الكلية معه وشعر أن هناك شيء ما وراء مخالفتهم لقانون الجامعة وقال فى نفسه: إذا ما أغفلتُ أنا عما يحدث ليونس فسوف يتم اختيار مرشح آخر ويضيع حق المسكين هذا، وقد يكون من حق إدارة الكلية المفاضلة بين مرشحين آخرين ولكن هذه المرة سوف تكون اجراء المفاضلة بمقتضى قواعد تنظيمية يملكها سيادة العميد ووكيل كليته ويسن قواعدها ايضاً ويتبعها الآخرون.

******

مر أسبوع وذهب يونس مع أمه الي رئيس القسم دكتور سمير، الذي كان يُدرس له منذ المراحل الأولي، وقد لاحظ كثيراً أن

يونس ممن يهتمون بالعلم كثيراً ويدرك يونس أيضاً أن هذا الرجل بارع وقد حصل على جوائز عديدة وآخرها حصوله على جائزة الدولة التقديرية.

الدكتور سمير فاروق فى الخمسين من عمرة، طويل القامة وقد شاب شعرة الناعم الكثيف، هو أستاذ التحليل النفسي ورئيس القسم، فقد تم استبعاد يونس من التعيين وكان لزاماً عليه تقديم مذكرة تظلم لعميد الكلية، وكان رد العميد على ان قرار التعيين الذي صدر لشخص آخر لم يصدر من كليته ولكن صدر من رئيس الجامعة وليس له شأن فى ذلك، وأنه لا يملك القرار لذلك.

حينما جلست أمه كانت حزينة بشكل لافت، رحب بهما دكتور سمير واقترب منهما مسافة مستعداً لتوضيح ما يمكن عمله فى عدم تعينه بالكلية قائلاً:

- ارفعي دعوة قضائية وسوف أساعدكم فى ذلك.

شحب وجه امه قليلاً وقالت بغضب:

- أين نعيش نحن؟ وفي أي البلاد نحن؟

صمتت للحظة فى واصلت فقالت:

- تقدمت فى التاسع من شهر مارس العام الماضي بتظلم للسيد الدكتور رئيس جامعة وقام بتحويل التظلم لعميد الكلية للرد وتحويل التظلم للجنة التعينات بالجامعة ولكن دون جدوى فى التظلم.

- تقدمي بمذكرة لوزير التعليم العالي والبحث العلمي وإذا لم يحدث رد حاولي ان تتصلي تليفونياً بالوزير وأشرحي له شكواك.

نظر يونس الي استاذه ثم قال له بنبرة هادئة بريئة:

- أنا أريد التعيين لتحقيق رغبة أمي، التي تمنت أن أكون أستاذاً بالكلية منذ أول سنة التحقت بها، وبالفعل وعلى الرغم من عدم رغبتي بالتدريس إلا أنني سعيت على تحقيق رغبتها وتفوقت طوال سنوات الدراسة.

نظرت إليه الأم وكأنها فهمت ما يقصده وأن موقف يوسف صعب للغاية من تعينه، ثم قالت:

- ولكن ما حدث مع ابني هو قمة الظلم وعدم العدالة فى تكافؤ الفرص، هل هذا جزاء تفوقه؟

صمتت للحظة ثم واصلت قائلةً:

- على أية حال، لا أريد أن نضايقك دكتور سمير.

نظر إليهما بطيبة وهدوء وثقة ثم قال:

- بالعكس لقد تشرفت بكم فى مكتبي، المشكلة أنه قد تم تعين معيداً أخر فى الكلية من آخر دفعة تخرج طبقا للخطة الخمسية وعن طريق مجلس الكلية وصدر له قرار تعيين، وبعد مرور شهور طلب نقله بالدرجة الى كلية الطب بجامعة أخري، وهو موجود على قوة الجامعة، وهذا ما جعلني متسائلاً ماذا يفعل معيد جراحه فى كلية لا تحتاج لهذا التخصص؟ وقالوا لي اننا تجاوزناها وفقاً للخطة الخمسية لكلية الطب، والتي وضعت منذ

زمن بعيد والتي لا يجوز تعديلها فى سنة التخرج هذه الخطة المعتمدة والمختومة تطلب معيد واحد جراحة وهذا ما جعلني أشعر بأن هناك شيء ما.

بدا القلق على وجهها فقالت مستفسرةً:

- شيء ما؟!

- نعم. شيء ما غير هذا السبب.

- تقصد أن عدم قبول يونس ليس بسبب مرضه؟

- نعم. لذلك أقول لكي ارفع دعوة قضائية وسوف أساعدكم، فان موقفنا قانونيا مائة بالمائة.

******

مر عام علي رفع الدعوة القضائية وانتصرت المحكمة الإدارية لحق يونس وتلزم الجامعة بتعينه معيداً بكلية الطب فى قسم الطب النفسي، وقالت أن يونس ترتيبه الأولى على كلية الطب والأول على القسم ، وذكرت أنه وفقاً للخطة الخمسية لتكليف وتعيين المعيدين والمعتمدة من مجلس الجامعة، فإنه يحق للأول بكلية الطب التعيين كمعيد بالكلية، ومن ثم فإنه من الواجب إصدار قرار بتعيينه كمعيدة بالكلية لأنه الأول خلال دفعته وبالفعل بعد أن أقام بالدعوة القضائية أمام المحكمة الإدارية ضد رئيس الجامعة وعميد كلية الطب، ورئيس الجهاز المركزي للتنظيم والإدارة تم تعيينه كمعيد بالكلية وأنه يكاد يكون هناك إجماع علي تفسير المشروعية له بالتعيين، فان ما حدث مع يونس كان لصالح مجموعة من الأساتذة الفاسدين والمجرمين

اللـذين لم يكـن مـن الممكـن أبـداً أن ينجحـوا فـى تحقيـق مكاسبهم الا من طريق غير مشروع، وان نجاحهم فى الحياة هو اختراقهم للأمانة العامة.

******

حينما ذهب دكتور يونس مع أمه فى زيارة لأختها فريدة، فتحت لمياء لهما الباب، وعندما دخلا إلى البيت أخذت لمياء نفساً عميقاً ونصبت عينيها إلى الأرض. كان هناك صوت والدها ممدوح وأخيها أسامه وامها فريدة. رفعت عينيها ونظرت إلى يونس، لم تدم نظراتها طويلاً ورحبت بخالتها، يونس أمامها جعلت داخلها يرتعش، غريب جدا، احساس دائم تشعر به عند رؤيته ويغمر كل جسدها، إحساس خطير ولكن لا يمكن مقاومته، نصبت عينيها فى الأرض مجدداً، عدم معرفة ماذا تفعل؟ هو شيء سيئ جداً. كانت خائفة من أن يلاحظ أحدهم نظراتها المندهشة، رفعت رأسها ونظرت إلى أمها، بقيت مجبرة على الذهاب إلى خالتها كريمان، تظن بأن يونس يراقبها أكان هذا كافيا لجعلها تدخل تحت الأرض، ولكن كل هذا لم يشعر به يونس، حاولت هي أن تبقى هادئة ونظرت الي خالتها مرحبةً بها وكان صوتها متقطعاً من كثرة الخجل.

ابتسامة خالتها كريمان جعلت لمياء تبتسم، ثم حولت نظراتها إلى أمها، وبعد أن رحبت لمياء بيونس، خرجت مسرعةً من الصالة، قدماها حملتها إلى المطبخ بصعوبة ورمت بجسدها على الكرسي، أمها دخلت إلى المطبخ بعد لمياء مباشرة، لمياء لم تخرج

بعد من تأثير عينان يونس الزرقاوان التي رأتها قبل قليل، لم تكن تعرف ما لذي تحس به، هذا لم يكن حب أو إعجاب بل يونس دائماً لديه مظهر ساحر، كلما رأته لمياء تتأثر به أكثر، مهما عاندت نفسها وتقول إنه قد لا يشعر بحبها وأنه ينظر إليها كأخته فقط ولكنها تتعلق به أكثر دون أن تشعر، وتهمس فى نفسها وتتساءل: هل هذا هو الحب، ما هو الحب اذن؟

نظرت اليها أمها وقالت ساخرةً:

- لماذا شحب وجهك مجدداً يا لمياء.

لم تعلق لمياء علي سؤال أمها ولم تجبها بشيء، فهي تتجادل مع نبضات قلبها التي لا تهدأ. قلبها الذي ينبض بجنون، دليل علي حبها الشديد ليونس، ثم عادت تهمس بصوت فى نفسها متسائلة: ألم تري كيف كان ينظر إلي يونس؟ لقد كان داخل عينيه يضحك. فهي تعتقد أن يونس يهتم بها أيضاً، بعد أن أخذت نفساً عميقاً وعادت إلى الصالة، بدأت بخالتها كريمان ثم وزعت الشاي على أمها ويونس، وأخاها أسامه ولم تستطع أن تنظر إلى يونس عندما أعطته الشاي، ثم جلست بهدوء على كرسي بجانب الطاولة. كانت تريد أن ترفع رأسها وتنظر إلى وجهه الذي لم تره بالأيام السابقة سوى بضع مرات، لكن خجلها لم يسمح لها بهذا، وبدأت تدور المحادثات بين العائلتين.

بينما نظرات لمياء مازالت فى الأرض، كان صوت قلبها يدق فى أذنها، يبعثها حماس دافئ، الصوت الذي كان غريباً فى البداية أصبح الأن أكثر يعجبها شيئاً فشيئاً كانت تجلس فى جانب

أمها وخالتها وقبالته، ثم جاء إليهم والدها ممدوح وجلس فى الناحية الأخرى المقابلة، عندما تخلصت لمياء من خجلها قليلاً نظرت إلى يونس، عندما رأت أمها وعائلتها، لم تستطع أن تنظر إلى وجهه مرة أخري.

******

أنهت لمياء دراستها من كلية الهندسة ولكنها تتألم لوجود تلك العقدة الموجودة فى حلقها هذه العقبة التي لا يعرفها أحد هي حبها ليونس ابن خالتها. وفي يوم ما عندما فتحت باب غرفتها بهدوء سمعت صوت رقيق يقول اسمها: لمياء. القادمة كانت عمتها فقد جاءت لطلبها بالزواج من ابنها. وبدلاً أن تجيب فضلت الصمت وحولت عينيها إلى الأرض. فهي تعلم أنهم قد اتخذوا القرار كي يتقدم لزواجها ابن عمتها المهندس ابراهيم ولم يسألوها مرة ثانية أو يأخذوا رأيها، ولكنها فجأة قالت بصوت عالي:

- لا أريد إبراهيم يا أمي، لا أريده.

جلست أمها فوراُ بجانبها بهدف تهدئتها أمسكت يديها، وقالت:

- لا تصرخي، أرجوك. سيسمع أحدهم، لم نصل إلى هذه الحالة الا بسبب الصمت؟

لا أريد أن أتزوجه يا أمي أنا لا أفهمه أبداً ولا أكون زوجته. سأكون تعيسة أنا أحس بهذا.

كانت تحس أنها تغرق فى محيط كبير، تحس أنها ناقصة وعديمة القيمة، رغم قولها لا أريد الزواج، كانوا يقولون لها ستحبينه مع الوقت وهذا ما يغضبها.

شحب وجه لمياء قليلاً وقالت بخوف:

- لماذا إذا؟

نظرت اليها أمها وقالت لها بقلق.

- عندما تحدث إبراهيم معك لأول مرة رأيتُ العمق فى عينيك، ظننت أنك سوف توافقين عليه وأن شعورك سينكسر.

المسألة أنني لا أفهمه يا أمي. لا أعرف أي رجل هو وكيف قلبه. قولي لي أليس هذا ما نسميه المشي نحو الهاوية.

ولكنك لا تريدين أن تفهميه أيضا؟

صمتت أمها للحظة ثم قالت لها بامتعاض:

هو رآك وأحبك، ولماذا تأتي عمتك إلى هنا لتخطبك؟ وبرأيي أنت أيضا معجبة به دعك من قول لا أريده.

عقدت لمياء حاجباها بغضب، ثم نهضت من سريرها واتجهت نحو النافذة، ثم قالت:

قبل عدة أيام حينما كان فى زيارتنا ليري خاله، كان ينظر إلى باهتمام، وبعد ذلك ها هو يأخذ عائلته ورأيته هنا بالضبط، وقادم لخطبتي.

نعم وما المشكلة؟

انتبهت أمها لاستيائها من عدم إخبارها برأيها كأنه جاء إليهم فجأة، على الرغم من أنه قد أخبرهم قبلها بساعات قليلة، صمتت أمها للحظة ثم قالت لها مستغربةً:

ألن تتزوجي يوماً ما يا لمياء؟ لم هذا العناد؟ قولي هل ستجدين أفضل منه؟ هذه هي المشكلة يا لمياء.

قالت لمياء بصوت عالي:

هو رجل يملك كل المقومات التي تجعل أي امرأة تقبل به، شاب، وسيم، غني، إذاً لماذا أنا؟ لماذا؟

أغمضت أمها عيناها وقالت:

- إذاً ماذا تريدين؟ أنا حقا لا أفهمك! وأنا لا أفهم؟

وضعت لمياء يديها على قلبها وكانت تنظر إلى الخارج من النافذة.

شخص مثله لماذا يطلبني أنا؟! أنا حقا لا أفهم!

لماذا تستخفين بنفسك يا لمياء؟ يمكن أن يكون قد انبهر بك؟

- فى وجود كل تلك النساء الجميلات، لماذا أنا؟

هذه المرة صرخت أمها بقوة.

هل أنت غبية؟ يوجد ألف فتاة لو كانت فى مكانك لقبلت بدون سؤال ولا تحقيق، وأنت تقولين سأكون تعيسة ولا أريده.

توترت لمياء مع مرور الوقت، والواضح أن أمها فهمتها جيداً، ثم صرخت بدون قصد، كانت غاضبة بشدة على أمها التي تعتقد أنها هي سبب كل هذا. كانت لمياء تمسك نفسها بصعوبة كي لا تبكي ورفضت كعادتها.

******

ذهب يونس الي عمله مبكراً، فهو يحب الحضور قبل موعده بدقائق، ولا سيما أنها المرة الأولى التي يتوجه فيها لمكان العمل

بالكلية، اتجه الي الردهة الطويلة الكثيفة حيث تتناثر مكاتب الأساتذة علي الجانبين مع لافتات تحمل أسماءهم ، وكان اليوم هادئاً قليل الصخب، دخل الي غرفة أستاذه ورئيس القسم دكتور سمير، كانت غرفة مكتبه واسعة، مصطفة الكراسي علي الجانبين، وبها خزانات كبيرة فى الحائط ، ومكتبات تحمل كتباً قيمة فى الطب والطب النفسي وبعض الصور التي يحتفظ بها وخاصة صور المناسبات العلمية، القي علية التحية، وفي تلك اللحظة جاء عامل البوفيه، وقال:

- هل تريد شيئاً دكتور سمير؟

وجهه دكتور سمير السؤال الي يونس، بعد ما طلب منه أن يستريح بالجلوس.

- شكراً.

- لابد ان تشرب شيئاً معي.

- قهوة.

قُرع الباب ودخلت الدكتورة نوال، ألقت التحية عليهما ورحبت بالدكتور يونس، فهي تعرفة جيداً ، فقد كانت مدرسته فى المراحل الأولي بالكلية، وهي كل يوم تقريباً تذهب الي مكتب دكتور سمير، فهي تألف المكان، ثم هنئت يونس قائلةً:

- لقد تلقينا ببالغ السرور صدور القرار بتعيينك معنا هنا بالقسم.

نظر اليها بحياء متفحصاً الأرض ثم قال:

- أشكرك دكتورة نوال.

الدكتورة نوال، مكتبها مجاوراً للدكتور سمير، وهي غير متزوجة، ودائماً مرهقة، بشرتها شاحبة والهامات تحت عينيها وبالتأكيد قضت أعواماً لا حصر لها حتى تنتهي من الأمور المهمة فى حياتها، الماجستير، الدكتوراه، فهي بالتأكيد فى الثلاثين من عمرها ولكنها فى ذات الوقت تحلم بذلك الكيان الأسري البعيد وكانت تشعر ان كل أنثي ظفرت بفتي احلامها باستثنائها.

حينما جلست تبادلت الحديث مع استاذها دكتور سمير، ولكنهما صديقين، فهي مهتمةً بالعلم ودائماً لها أسئلة علمية وهذا ما يبرر لها هذه الزيارات، وكان دكتور سمير متأهباً للإجابة فى كل وقت، آراءه العلمية منتقاة بعناية وهو بارع فى كل شيء فى الدين، فنون، سياسة، أما يونس يجلس ويرمق بالسقف ويبتسم، يبتسم عندما يتذكر انه مر بمراحل الدراسة الوادعة وكيف انتصرت له المحكمة وهو الآن معيداً ثم بدأ دكتور سمير مشاركته فى الحديث ناصحاً:

- ان النجاح فى العمل يحتاج إلى كثير من الصّبر والتّحدّي والمواجهة والتّفاني، فالأمر ليس سهلًا يا دكتور يونس.

- أتمنى من اللّه التوفيق والنجاح.

- تعودنا على نجاحك وتميزك، ننتظر ابداع عملك.

- ان شاء اللّه.

جاء عامل البوفيه العم فتحي ووضع فنجان القهوة على مكتب دكتور سمير ووضع ليونس فنجانه على منضدة صغيرة أمامه وفي متناول يده، نظر اليه دكتور سمير ثم قال له بطيبة وهدوء:

هيا اشربها متمهلاً. أنها ساخنةً قليلاً.

شكراً.

تتأمله دكتورة نوال، فى حين كانت القهوة التي كان يرشفها بجرعات صغيرة، تبث حرارتها فى أجزاء جسمه كله وتجعله يشعر بالاضطراب أكثر. بينما كان يونس يفكر فى أمه التي كانت تسكب له قليلاً من القهوة، ويفكر عندما كانت تلفه بغطاء صوف قديم حينما كان يدخل البيت مرتجفاً من أمطار الشتاء الباردة، رغبة منه فى أن يقول للدكتور سمير انه قد ذكره بوالدته، ولو كان يستطيع أن يتذكر والده لقال انه يذكره به، لأنه قد وهبه قلباً جديداً وحياة جديدة بمساعدته فى الحصول على هذا العمل، ولم يبالغ معه فى إسناد مسئوليات العمل له ودفع يونس للابتسامة غصب عنه، فهو حتى الآن لا يصدق حصوله على العمل، بالتأكيد شاب فى العشرين من عمره فى سن كهذه يمكنك أن تعد نفسك محظوظاً عندما تجد عملاً مرموقاً.

عاد اليه دكتور سمير بالحديث، وأسند له مسئولية عمل أخري ولكن قالها له بطريقة شبة جاده، ثم ابتسم له وهو يشرب القهوة بحسوات صغيرة وكأنه يريد ان يقاسمه شرب القهوة التي يرشفها ببطيء وبكل هدوء، وبدأ دكتور سمير بالكلام أيضاً عن بعض

التوجيهات والنصح له، توقف يونس لحظة عن تناول القهوة، ووضع إحدى يديه تحت ذقنه، ساكناً تماماً مرهف السمع صبوراً، انتهي الحديث بينهم، وقبل ذهابه الي مكتبه، نظر اليه دكتور سمير وفكر بأنه ربما قد يريد شيء ما فقال له:

هل تريد ان تقول شيئاً؟

رغبت فقط فى أن اسمع نصحك.

أنك مسئول الآن.

لا تقلق بشأني انني معتاد علي تحمل المسؤولية.

حينما خرج يونس، اتجه الي مكتبه الجديد فى غرفة بها مكتب آخر علية لافتة باسم صاحبته وبعد دقائق طُرق باب مكتبه ثلاث طرقات قصيرة، كان يونس مسترخياً على كرسي مكتبة، يداه متشابكتان، شارد الذهن كعادته، من فوق رأسه، فُتح الباب وجاءه بعض زملاءه من أعضاء هيئة التدريس بالكلية، ألقوا علية التحية، رد عليهم وابتسم لهم ابتسامة خفيفة ولمع وميض فى عينية، وكأنه يستعيد العمل المنجز له خلال مراحل دراسته السابقة، نهض ومد يده لاستقبالهم بالتحية، ثم قال له أحدهم مهنئاً:

- تهانينا لك علي عملك الجديد دكتور يونس.

ارتسمت على وجهه ابتسامة بريئة، فقال قال له الآخر:

- أحسنت لقد وصلت إلى هنا بمجهود كبير.

فقال له وهو يعد نفسه للمصافحة:

- شكراً.

تقدمت زميلة أخري ثم قالت له بهدوء وهي تنظر إليه بإشفاق:

- إنجازاتك تتحدّث عن قدراتك دكتور يونس. أنك شخص محبوب من الجميع، مبارك عليك العمل الجديد.

صمت دكتور يونس للحظات وكأنه كان يفكر فى عبارات الرد على هذه التهنئة، ثم قال له آخر:

- أتمنى لك كل خير، فليس هناك شكّ فى أنك سوف تتقدم بسرعة فى حياتك المهنية؛ لأنك ذكي للغاية، ومجتهد، وتعمل بجد وبأخلاقيات التميز، استمرَّ وامضي قدمًا.

صمت للحظة ثم قال:

- أشكركم، شكراً جزيلاً.

تقدم من بينهم شاب بدين لا تكاد رقبته تظهر من كتفه، شاحب اللون، وهَمه لازِم، وقلبه هائم، تدل هيئته ظاهرياً على الهيئة النظيفة والثقة بالنفس، ولكنه غضوب عبوس، ويتظاهر بين زملاءه فى ثوب المظلوم ، ويألف الكلية رغم أنه كان يدرس فى جامعة أخري، فهو صهر سيادة العميد، الدكتور عامر والذي تم نقلة الي الكلية العام الماضي، لذلك لا يعرفه يونس، وهنئه مستطر ولكن يونس شعر بالراحة والضيق فى آن واحد، وهو دائماً لا يكشف وجهه عن أي نوع من أنواع الانفعالات، وتوقع أنه هو ذات الشخص الذي عين من قبل مكانه بالكلية وجلسوا جميعهم بالكراسي على جانبي المكتبين، ثم نظر الية وقال:

- ابارك لك على الوظيفة، ان النجاح يجعل الكثير من الناس يحبونك وحتى لو جاء بطيئاً، وكم تمنيت ألا تكون الأمور بهذا الشكل.

قالها بنيرة غضب ووجهه عبوس. صمت دكتور يونس للحظة فقد فهم ما يرنوا اليه، ثم قال له بوضوح:

- لا ينفعك الله بذلك ولا يضرني.

ارتبك هو ثم ابتسم بابتسامة مشوبة باستخفاف وقال:

- ماذا تقول؟

اجابه يونس، فقد شعر كأنه فهم شيئا خفياً:

- طهّر قلبك.

وخرج من المكتب يشتعل غضباً، وأطبق الباب وراءه بكل عنف.

غضب صديقة الدكتور حازم مما حدث معه، فقائلاً:

هل دخلت قلبه وعلمت ما فيه؟

ثم الحق به هو الآخر وخرج.

أنصحك لا تقترب منه، إن قلبه مُلئ غيظاً وحسداً وغيرة، وأنت تعرف قرابته من عميد الكلية.

ألا يتقون الله ويخافونه، لا قرابة نسب ولا رحم تنفعهم، وعلاقتي به جوار العمل فقط.

أنه لا يتفاهم مع أحد ولا يحبه أحد.

سبحان الله، القلوب جنود مجنده، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف.

لا تفكر فيما حدث.

******

قضي دكتور يونس بعد هذا يوماً مثالياً فى العمل خالياً من بعض المشاكل، ما بين المحاضرات والاشراف علي المرضي فى المستشفى المجاورة للكلية، وكان مزاجه معتدلاً حتى موعد الخروج من الكلية، فهو يمشي بخطوات بطيئة، متمهلاً على ساقة التي دائماً هو بحاجة لتحريكها، وقد رأي جماعة من الطلاب ينظرون الية وهو يمر بهم ولكنهم أشعروه بالانزعاج وكانوا يتهامسون باهتمام، ثم اسرع خارجاً، وقد زلّت به قدمه وسقط أرضاً وهو ينظر إليهم، ثم نهض وقد احتضنه أحدهم لمساعدته وهرع الي سيارة اجرة واتجه الي بيته، وقد قرر ألا يذكر شيئاً لأمه وقضي يومه بالبيت كعادته.

******

وقبل غروب الشمس جاءت إلى أمه جارة لهم لتحكي لها أخبار جارتهم التي تسكن الشقة المجاورة وتحكي عن مشاكلها مع ابنتها وتنتقل لتقص عليها أخبار أخري، يونس يعرف أن أمه لا تحب تلك التصرفات، وقد حاولت أن تكون طبيعية فى تصرفها معها، ولكن يونس لا يستطيع أن يكون طبيعيا فى تلك الأمور فأخبرها بأن ما تفعله لا يجوز، ويتوجب علينا أن نترك مجالسة المغتابين والنمامين من الناس وبدأ يذكرها ما تقع به من الغيبة، فغضبت الجارة وخرجت من البيت مسرعةً.

الفصل الثامن
حـياة جديـدة

قررت أمه الانتقال الي شقة أفضل بجوار عمله، فهو الآن معيداً بالكلية ولزاماً علية الاهتمام والاعتناء بنفسه ولا مانع من الذهاب الي بيت جديد، سابقاً لم تنتبه إلى المبنى القديم الذي تقع فيه شقتهم القديمة، والآن هما فى شقة جديدة وبيت حديث و يتألف من ستة طوابق، فى كل طابق تعيش فيه عائلات صغيرة العدد، وعائلة كبيرة فى الطابق الثاني ، أما الطوابق الأخرى منه ففيه شقتان صغيرتان متقابلتان بشكل غريب وبالطابق الرابع منها تقع شقتهما الجديدة ، لا يفصل بين الشقق المجاورة سوى مسافة مترين تقريباً، أحدهما تتألف من غرفة صغيرة وملحقاتها يسكنها عائلة اخري، والشقة المقابلة لها والتي هي شقتهم ، تتألف من غرفة الاستقبال ومطبخ فى أعماقه تقع غرفة النوم والحمام بين الغرفتين ثمة باحة كبيرة وواسعة جداً تفصل الباب عن الغرف، وما بين هاتين الشقتين والطابق الأرضي ثمة سلم كبير حديث، لا يصدر أصواتا عند صعود أي أحد عليه ،فهو بيت حديث له طراز جميل والأهم أنه مجاوراً الكلية التي يعمل بها يونس، ولكنه نفس قطع الأثاث الكئيبة التي صنعها يوما ما نجار الشارع منذ أكثر من عشرين عاماً ونفس الستائر والصالون وبعض اللوحات المكتوب عليها آيات من القران الكريم هذا كله جعل يونس يشعر بالاطمئنان، ولأن التغيير فى المكان كان طفيفاً، ولا زالت أمه بعد أن تنجز واجباتها البيتية كالعادة كإعداد الطعام وغسل الملابس، تقضي بعض وقتها أمام التلفزيون، ثم تتجه للصلاة وقراءة القرآن، وبرغم أنها لا

تفهم مفردات العديد من الآيات كأي شخص أحياناً لكنها كانت تقرأها بانفعال ورهبة فهي علي درجة عالية من الإيمان.

كان يونس يلتزم بقراءة القرآن كعادته ويخاف من يوم الحساب والصور الرهيبة ليوم القيامة التي يقرأها فى القرآن، و كان يخاف أيضاً من تلك القصص التي سمعها من أمه أثناء طفولتها أو التي قرأها فى بعض الكتب والكتيبات التي كانت تباع فى وسائل المواصلات أو الكتيبات التي توزع صدقة جارية على أحد المتوفين من الجيران أو من العائلة أو أثناء قيامه بالزيارة إلى القبور مع والدته، لاسيما تلك الكتب التي تتحدث عن عذاب القبر وزيارة الملائكة للميت وحسابه هناك، فهما دائمان علي موعد بزيارة نبيل و زينب رحمهما الله ، كانت تلك التصورات عن عالم القبر تثير رعبهما الحقيقي ولكن دائماً يجلس يونس و يتصور نفسه وحيداً فى ظلمة القبر، هذا أقصي ما يتخيله يونس عن ظلمة القبر، بينما أمه ، تتصور ملائكة الحساب، و تتصورها وهي يقظة وفي وعيها تماماً ونحن لا نندهش من هذا فهي ذات خبرة بالموت فقد توفي زوجها وابنتها وهذا كله قد يرعبها من الموت أحياناً بشكل حقيقي، و دائماً تتذكرهما و تقول فى نفسها: لقد مات كلاهما فى صحة جيده، أي شيء ذلك؟ ولكني أراهما ينعمان معاً بسكينة الخلود ويرتعان فى رياض الجنة، نعم لقد عملا فى حياتهما أشياء تستحق لهما الخلود والرتع.

******

ومرت الشهور وفي كل صباح يلتقط يونس واحدة من أربطة عنقه استعداداً الي الذهاب الي عمله وأمه تحضر الطعام بسعادة، وفي الساعة السابعة والنصف يحمل حقيبته ويقبل رأس أمه ثم يذهب الي عمله علي ساقه كعادة كل يوم فالعمل ليس ببعيد عن البيت الآن، وقد ارتاح من زحام السيارات و مرور الصباح المعتاد فى وسط المدينة، وعند وصولة الي الكلية وكأي يوم يري يونس مجموعات من الطلبة فى ملابسهم الغريبة، وكم هو يكره هؤلاء الذين يرتدون الأشياء الغريبة التي يرتديها شباب هذه الأيام وكأنهم فرق الأكروبات السخيفة بينما هي احدي الموضات الجديدة السخيفة.

حينما وصل مكتبه جلس وقد أدار ظهرة للنافذة كما يفعل عادة، حتى لا يشغله شيء عن عمله، ثم يذهب الي مكتب استاذه الدكتور سمير، ليري هل هناك من مسئوليات يحتاج فيها مساعدته؟ وكعادته كل يوم يذهب لمساعدة أساتذته بالمحاضرات ويذهب للمستشفى فى أيام معينة لمتابعة بعض المرضي.

******

في ليلة ما حينما ألقى عادل نظرة على حديقة منزله الكبير بمدينة القاهرة، توجه إلى زاوية، تبدو أنها مكانه المعتاد، حيث يوجد منضدة وكرسي قريبين من المسبح، كان هادئ الملامح، حزين النظرات، وضع كأسه على المنضدة ثم وضع الأسطوانة الدائرية بالمسجل، ثم مد سلكه ليدخل الموصل فى القابس

الكهربائي المجاور له عند حافة الجدار الأرضية، ثم جلس على الكرسي بعد أن ضغط علي الزر و رفع صوت المسجل من خلال جهاز التحكم، منتظرا بدء الأغنية، ثم نظر الي المسجل وكأنه ينتظر فرقة موسيقية تبدأ له ببرنامج قطعة موسيقية راقصة، يستمع الي الأغاني ، رشف من كأسه وما أن رشف حتى غرق فى بحر الذكريات، فيتذكر أخيه نبيل وأبنائه ثم همس فى نفسه: كيف أكفر عن أخذي لمال أبناء اخي نبيل؟ فعندما كنت فقيراً كنت بحاجة شديدة له، اما الآن فأنا لست فى حاجة له، لماذا لم أدرك هذا إلا بعد فوات الأوان؟ وهل أستطع أن أجدهم لأطلب منهم المسامحة، ماذا أفعل؟ بدأ شيطانه يوسوس له بوساوس عظيمة فقال له: نهنئك يا عادل على هذه النفس اللوامة التي لامتك على التقصير وعلى ذلك الظلم لأبناء أخيك الأيتام، وأنه ينبغي أن يكون هكذا المؤمن يحرص فى هذه الدنيا على أن يتخلص من ظلم من ظلمهم، ولكن هل تري أنه حقّاً لهم؟ فأجاب فى نفسه بالإيجاب، ثم سمعه يقول: لا تشدد على نفسك ولا تأسف على ما فات، فالأيام كلها أمامك ودع هذا الي العام القادم فأنت عليك العودة الي روما لتنهي بعض أعمالك ولسوف تعود قريباً والآن تمتع بالشباب، ثم دار بينهما حوار يتخلله نوع من الوعظ الكاذب، فقال عادل لشيطانه موبخاً نفسه:

- ذهب عني الشباب.

أحابه شيطانه مطمئناً:

- أنت شباب وعمرك لن يفوت.

- أخشى الموت.

- قلت لك عمرك لن يفوت وروح نفسك بالأغاني.

- أليس حراماً ما فعلته معهم؟

- عندما تعود لابد من إصلاح الأحوال وأنت ركبت الأخطار وسافرت لجلب المزيد من المال، فأنت لديك الكثير وأبواب الخير من المال كثيرة.

- انا معك أينما تذهب.

- انا لا اذهب الي بلد آخر، سوف أنتظرك حتى تعود.

- ان مصر حبيبه وفي قلبي وسوف أعود اليها قريباً.

وقد شعر بالاختناق وحيداً، فزوجته وأولاده لازالوا بروما فهي يعيش اشبه الى حد ما من فزاعة فى حقل بعيد وحينما سمع أغنيته الحزينة، ردد معها:

الوا زمان دنيا دنية غرورة...

وقلنا واللي تغره يخسر مصيره

قالوا الشيطان قاد وله ألف صورة...

قلنا ما يقدر عللي خيره لغيره.

سمع عادل أذان الفجر، أغلق المسجل وذهب الي المرافق وتوضأ ليصلي وقد توضأ أكثر من مرة وكأنه مصاب بوسواس قهري من الطهارة، فهو نادراً ما كان يفعل هذا ولكنه على كل حال شعر بالنظافة والضياء، أنه شعور النور فى نفسه من ظلمة الذنوب، ولما لا وهو لأول مرة يفكر بالصلاة ولكنه حينما

أستغرق فى الصلاة سمع أصوات وحركات، فهو يفز من أي حركة أو نأمة يسمعها فى منزله الكبير الفارغ، كثيراً ما كان يتصور بأن ثمة شبحاً أو روحاً تدخل عليه الغرفة أو تقف خلفه وهو مستغرق فى سماع أي شيء، فيتوقف عن الاستماع ويغلق المسجل للحظات ثم يلتفت مباشرة إلى الخلف فلا يجد أحداً، ثم يقوم من جلسته ليذهب إلى زاوية أخري من حديقة المنزل ليجلس ويشغل التلفزيون ذو الشاشة الكبيرة ويرفع صوته عالياً ليقضي على هذا الصمت والسكون والوحدة التي صارت ترعبه ثم قرر السفر الي إيطاليا لإنهاء بعض أعماله وليعود بأبنائه وزوجته.

******

في مساء يوم جمعة، ذهب يونس الي دكتور سمير فى بيته بدعوة منه، فقد دعاه لزيارته واستغرب يونس من أن دكتور سمير وزوجته الدكتورة شادية يسكنان شقة فى بناية وليس بيتاً منفصلاً، لكن استغرابه زال حينما دخل إلى البناية، إذ كانت الباحة التي تقود إلى المصاعد نظيفة جداً ومرتبة ومفروشة بالسجاد الأحمر مما يدل على أن جميع سكان البناية ذات الطوابق التسعة من الموظفين الكبار فى الدولة، فهؤلاء لديهم امتيازات استثنائية تختلف عن عامة الناس.

عند مصعد البناية وقف يونس حاملاً باقة ورد بيديه، منتظراً أحد المصعدين اللذين كانا معلقين فى الطوابق العليا، ومن غرفة فى أقصى الممر خرج حارس البناية الذي كان فى ثياب رسمية أنيقة على خلاف حرّاس البنايات الأخرى، فهو كما يبدو من رجال أمن البناية. تقدم الرجل من يونس، وسأله:

عفواً. حضرتك تقصد مَن سكان البناية؟

أنا ضيف الدكتور سمير، أستاذ التحليل النفسي بكلية الطب؟

واسم حضرتك إذا سمحت. هذه إجراءات فلا تنزعج رجاء؟

أنا دكتور يونس، تلميذه وزميله بالعمل فى الكلية.

أهلاً وسهلاً دكتور يونس.

عفواً، ممكن أن تخبرني فى أي طابق يسكن الدكتور سمير؟

نظر الحارس إليه بتساؤل، فانتبه يونس لذلك، فقال:

عفواً. أنا أزوره لأول مرة.

مفهوم، هو يسكن فى الطابق الثالث.

مضى الرجل الحارس إلى مدخل البناية، بينما هبط أحد المصعدين فدخل يونس أحدهما، وفي تلك اللحظة بالذات وقبل أن يضغط على زر الطابق الثالث دخل المصعد رجل وامرأة عجوزان، نظرا إلى يونس مع ابتسامة ودودة وألقيا عليه التحية.

أُغلق باب المصعد وبدأ بالصعود، وحينما فُتح باب المصعد مرة أخرى فى الطابق الثالث، انتبه إلى أن الطابق لا يضم إلا شقتين، خرج هو. وخرج العجوزان أيضاً. اتجه العجوزان نحو إحدى الشقتين. ومن خلال حركة العجوزين عرف أن الشقة الأخرى هي المقصودة، فاقترب وقرأ الاسم على لوحة نحاسية قرب جرس الباب، ثم ضغط على الجرس، بعد أن وقف عند باب الشقة فى الوقت المحدد وظل يتمشى عند الباب ثم طرق الباب.

فتحت امرأة فى الخمسينات الباب، كانت تشد إزاراً أحمر فوق ثوبها فبدا واضحاً أنها التي تقوم بالخدمة فى البيت، ودخل دكتور يونس إلى الباحة التي كانت بمثابة غرفة استقبال أيضا. كانت غرفة الاستقبال واسعة جداً وعالية السقف ومزينة باللوحات الفنية والتماثيل الصغيرة ومفروشة بالسجاد الثمين، وكانت مفتوحة على صالة كبيرة للطعام توسطها مائدة صُفت عليها الأطباق الصينية الثمينة والملاعق والسكاكين والأشواك والمناديل.

ما أن دخل حتى أشارت إليه المرأة بالجلوس وسألته إن كان يحب أن يشرب شيئاً، فجلس ولم يطلب شيئاً سوى كأسٍ من الماء، فاختفت المرأة وبقيَ وحيداً مستغرباً من عدم وجود أحد. فجأة. سمع وقع أقدام وحركة تأتي من مكان آخر فى الشقة، التفت فرأى الدكتور سمير أمامه، ألقى عليه التحية وصافحه وصاح مقهقهاً لما يحمله يونس من الورد فقد زلزل المكان بضحكاته! وقال:

- يا لك من شخص جميل! الورد يا عزيزي لا يهدى للرجال هو للزينة ولتتبادله النساء فيما بينهن لأنهن مثل الورد ويعشقن الورد. اجلس. ولكن على كل حال سوف تسعد به زوجتي الدكتور شادية، شكراً دكتور يونس. أستريح.

ثم أخذ باقة الورد، وجاءت اليهما الدكتورة شادية وألقت عليه التحية، وقالت له:

- يا لها من باقة جميلة، يا لتنوع الألوان، شكراً جزيلاً معذرة لقد تأخرت فى استقبالك، نحن سعداء جداً بزيارتك يا دكتور يونس.

أحس يونس بالخجل من تعليقهما عن تقديم الورد لأستاذه، فقال بنبرة يشوبها خجل خفي، على الرغم من أنه يتألق من الداخل لكلمات الشكر التي سمعها منهما:

- أشكركما على دعوتكما لي، وأنا سعيد لتمكني من الحضور اليكما.

التفتت الدكتورة شادية تفتش فى أرجاء الصالة عن مكان تضع فيه باقة الورد، فوجدت طاولة جانبية فاتجهت إليها ووضعت باقة الورد التي بدت وكأنها لوحة فنية فى إناء كريستال.

توجه إليه الدكتور سمير وجلس على مقعد قبالته، وغادرت الدكتورة شادية مجلسهما. دقائق ثم دخلت المرأة وهي تحمل صينية فيها كأس من الماء. تقدمت من يونس وانحنت لتقدمه، فأخذ الكأس، وما أن انتهى من شرب الماء حتى بادره دكتور سمير، وقال له:

هنيئاً يا دكتور. ماذا تشرب عصير فواكه، شاي، قهوة؟

شكراً. لا أريد شيئاً. فأنا غير مصدق لوجودي هنا فى بيتك يا دكتور.

لا. لا. يجب أن تشرب شيئا لأن العشاء سيتأخر قليلا.

استعد حينها يونس بحرك آلية كأنه سوف ينهض للخرج وقال متعجباً:

عشاء!

طبعاً

لا. لا. أشكرك يا دكتور.

فنجان قهوة. إذا أمكن.

طبعا.

التفت إلى المرأة التي كانت تنتظر أوامر دكتور سمير، وقال لها:

اثنان قهوة.

ابتسمت المرأة وغادرت لتحضر لهما القهوة، ثم صمت دكتور سمير لحظة ثم قال:

- دعوتُك اليوم لزيارتي وأردت ان أتحدث معك بعيداً عن الكلية. هناك برنامج منح دراسية ممول بالكامل من الولايات المتحدة الأمريكية، يستهدف الراغبين فى الحصول على درجة الماجستير أو الدكتوراه من إحدى الجامعات الأمريكية، تغطّي المنحة نفقات الدراسة، والكتب الدراسية، وتكاليف السفر بالإضافة إلى تقديم راتب شهري وتأمين صحي. لقد رشحتك لهذه المنحة فما هو رأيك؟

بالتأكيد أتمنى استكمال دراستي بالخارج ولكن أنا أكره الابتعاد عن أمي، ولا أحب البقاء خارج المنزل لوقت طويل.

لم يصدق يونس ما يسمع، فالأخبار المفرحة تتوالى كما فكرمع نفسه فى هذا العام، أولها كان تعينه بالكلية وانتصار

المحكمة له، ثانيها الاستقبال الحميم والرائع من زملائه بالكلية فى أول تعينه، ثالثها دعوة استاذه له فى بيته ورابعها قوله إنه مرشح لهذه المنحة على الرغم من أنه لا يرغب فى ذلك، ولكنه سعيد وقد ازدادت ثقته بنفسه. وبعد الفراغ من الحديث، مدّ يونس كفه مصافحاً دكتور سمير ومعتذراً عن الانصراف دون أن يبدي رأيه أو يرد عليه، وطلب منه أن يفكر بهذا. ألقى التحية عليه وانصرف.

******

وصل دكتور يونس الي بيته وعندما وقف أمام باب شقته، رن جرس الباب، نظر إلى ساعته اليدوية فرأى أنها تشير إلى التاسعة مساءً بالضبط، فابتسم لأنه لا يعتاد ان يكون بعد هذا التوقيت خارج البيت ولو تأخر لانزعج كثيراً، وهذا ما يفسر انصرافه سريعاً عند زيارة دكتور سمير، سمعت أمه جرس الباب، فتحت له الباب فدخل يونس، حيوياً، ولكنه قلق النظرات الي حد ما، استقبلته أمه مبتسمةً، وقالت:

- كما ظننت أنه أنت بالباب، فقد نسيت مفتاحك كعادتك، وأنت لا تتأخر عن أي موعد مهما كان غير مهماً. دائماً تصل فى الموعد المحدد بالضبط، ماذا قال لك دكتور سمير، هل هناك أمر ما؟

بهت يونس من سؤال أمه فقال معلقاً على سؤالها، مبدي لها أيضا عدم رغبته الواضحة فى مواصلة الحديث عن هذا الموضوع لعدم رغبته فيه كي لا يبعد عن امه، وكأن سؤال أمه بمثابة

هزيمة له، لأنه لا يستطيع أن يخبئ عنها شيئاً، وكأنه فقد شيئاً من حيويته ومرحه الذي رافقه عند الدخول، مستدركاً بنبرة فيها مزاح وتراجع.

- نعم يا امي. إن الحديث كان ممتعاً معه.

- وماذا قال لك؟

- حدثني عن منحة دراسية لي في إحدى الجامعات الأمريكية، ولكني لا أرغب بها، وقد سعدت كثيراً باستضافته لي في بيته.

نظرت الية أمه بمرح، ولكنها قلقت علية وهمست في نفسها: كيف له أن يعيش وحيداً؟

******

في صباح اليوم التالي استيقظ الدكتور يونس وفي غرفته وقف أمام المرآة يمشط شعره، ثم يلتقط واحدة من أربطة عنقه استعداداً الي الذهاب الي عمله وأمه تحضر الطعام بسعادة، وفي الساعة السابعة والنصف يحمل حقيبته ويقبل رأس أمه ثم يذهب الي عمله، بينما ظلت أمه تفكر في الإشارات الغيبية التي جعلت يونس في الوضع العلمي هذا، فكرت مع نفسها: بعد أن كان يعاني من متلازمة النطاسي الشديدة في طفولته! ربما لأنها امرأة مثقفة وكانت في يوم من الأيام تسعي للحصول على المزيد من العلم، لذلك انعكست رغباتها في أن تري ابنها في هذه المكانة العلمية.

******

عاد يونس الي بيته وقد قضي يوماً مثالياً فى العمل خالياً من المشاكل، ما بين المحاضرات والاشراف علي المرضي وفي مساء ذات اليوم ظل يونس طوال اليوم منهمكا بالقراءة والمذاكرة، وشرب الشاي، والنسكافيه، والقهوة، وقد تناول الطعام متأخراً، وبقي يقرأ!

كانت أمه تعرف طقوس المذاكرة والقراءة لديه، فكانت لا تقترب منه، وتحافظ على أقصى ما تستطيع من هدوء فى البيت، لكنها تدخل عليه بين فترة وأخرى لتسأله إن كان يريد شيئاً، شاي أو نسكافية أو قهوة.

حين جاء المساء. دخلت بهدوء الي غرفته وجلست على كرسي أمام مكتبه، ظلت تنظر إليه وهو يقرأ. لم تبق طويلا، مضت إلى غرفتها، بينما ظل هو يقرأ إلى ساعات الفجر الأولى، خلال هذه الساعات كانت أمه تفكر بموضوع سفره ودراسته فى الخارج. ظلت تفكر كثيراً. محاولة أن تعرف هل يستطيع يونس العيش وحيداً. أحست بالعجز، وظلت تفكر كثيراً.

استيقظت أمه صباحاً، كان يونس فى غرفته نائماً، واعتقدت أنه غير مرتاح فى النوم فكانت لأول مرة تسمع له صوت شخير وهو نائم، مرت بالمطبخ، بدأت تغلي الماء لإعداد الشاي، ثم مضت إلى حيث ينام فى غرفته، هي تعرف أنه أحياناً يتأخر فى مذاكرته وينام متأخراً. حاولت إيقاظه، قائلة له:

- يونس. يونس. قم من نومك.

لم يستيقظ يونس مباشرة، وحينما هزته ثانية برفق، فز من نومه مرعوباً وكأنه مطارد من قوى مجهولة، وتمتم بخوف قائلاً:

ها. ماذا. ماذا حصل؟

نظرت إليه امه بإشفاق، ثم قالت له بهدوء:

لا شيء. لم يحدث أي شيء. فقط انهض وخذ حمامك. يبدو أنك تعبت البارحة جداً.

انتبه لما هو فيه وعرف أنه نام بعد تعب شديد من القراءة والتفكير. بهدوء استيقظ لكنه نظر إلى الساعة الحائطية فقام بسرعة، وهو يقول: الساعة السابعة والنصف، ربما سأتأخر اليوم عن العمل كان يجب عليا الاستيقاظ الساعة السادسة.

نهض خارجاً من الغرفة وذاهباً باتجاه الحمام. تبعته أمه متجهةً إلى المطبخ لتعد لهما الفطور، بعد قليل خرج من الحمام وهو ينشف وجهه بمنشفة بيضاء. كانت أمه قد صبت الشاي في كوبين وأخرجت علبة الجبن والعسل مع علبة القشطة من الثلاجة كما كانت قد وضعت الخبز على شعلة النار، ووضعت هذه الأشياء في صينية وذهبت إلى الصالة كي يفطرا إلا أن يونس كان كما يبدو مستعجلاً فعلاً، لذا أخذ الخبز وبدأ الأكل وهو واقف وكعادته لا يأكل الا العسل بالقشطة فهو لا يغير تناول فطوره منذ أن كان صغيراً. حينما نظرت إليه أمه باستغراب نظر هو إليها بهدوء مستفهماً وقالك:

لماذا تنظرين إليّ هكذا يا أمي؟ إنني متأخر اليوم، وهذا أول يوم أتأخر فيه.

أنك تذكرني بأبيك.

ثم أخذ يشرب الشاي بسرعة وبجرعات كبيرة، وما أن انتهى حتى خرج مسرعاً من الشقة، بينما ظلت أمه وحيدةً كعادتها كل يوم، وضعت كوباً وقطعة من الخبز وشيئاً من الجبن فى الصينية ووضعتها إلى الأرض، ثم جلست لتأخذ فطورها لكن قبل ذلك ضغطت على زر التحكم، فبدأ بث التلفزيون، وبعد أن أنهت أمه فطورها، قامت للحظة حاملة الصينية إلى المطبخ، ثم عادت بكوب مليء بالشاي وجلست ثانية لمتابعة البث التلفزيون، وبعد دقائق ضغطت على زر التحكم لتغلق شاشة التلفاز، وذهبت لقراءة وردها اليومي من القرآن.

******

كانت الساعة فى حدود الثامنة صباحاً حينما دخل يونس إلى الكلية وذهب الي مكتبة الذي يقع فى الطابق الثاني من مبنى الكلية وهو مبني حديث البناء، فوجد زميلته الدكتور فاتن جالسةً بمكتبها بنفس غرفتهما، كانت الدكتورة فاتن فى أواخر الثلاثين من العمر، كانت ترتب بعض أبحاثها والملفات الموجودة على طاولة مكتبها، فبادرها مرحا:

صباح الخير دكتورة فاتن.

فالتفتت إليه وقالت وهي تبتسم:

صباح النور دكتور يونس.

جلس يونس إلى مكتبه الخاص بينما استمرت الدكتورة فاتن بترتيبها للأبحاث والملفات، بعد فترة وجيزة توقفت وخرجت

مسرعةً كي تلقي محاضرتها، فى حينها جاءه دكتور سمير مرحاً.

يا أهلا وسهلاً. صباح الخير دكتور يونس..

أنا آسف جداً دكتور سمير، لأنني لم أصل مبكراً اليوم.

لا بأس.

صمت دكتور سمير للحظات ثم قال له:

أحتاجك سريعاً ولمدة نصف ساعة؟ أمر ضروري جدا؟

كان حينها يلملم يونس أوراقه من فوق مكتبة، وفي حركة آلية يرد علية قائلاً:

طيب. سأكون عند سيادتك خلال ثواني.

سوف انتظرك.

******

في اليوم التالي كانت الساعة فى حدود السابعة والنصف صباحاً، جاءت الدكتورة فاتن إلى الكلية وذهبت الي مكتبها، فوجد زميلها الدكتور يونس جالساً بمكتبة يقرأ فى بعض أبحاثه، فبادرته بالتحية مرحةً، ثم فجأة بدأ بالحديث معها عن ضرورة الحجاب والابتعاد عن طريق الشيطان، وفي نفس الوقت دخلت اليهما دكتورة نوال وأخبرتها الدكتورة فاتن بما يقوله يونس عن مسألة الحجاب، فسخروا منه، ثم قالت له دكتورة فاتن:

- عليك أن تنتبه من هؤلاء الناس الذين يحدثونك فى تلك الأمور.

ارتسمت علامات الغضب على وجهه، ولكنه قال لهما بكل هدوء:

- امر اللّه المرأة المسلمة بالحجاب.

نظر إليه الدكتورة نادية بود متناسية سخريتها منه، فقالت:

- إن المسلم هو من سلم الناس من لسانه ويده، وإن الحجاب مسألة شخصية، فإذا أردتُ أن أتحجب فهذا شأن يخصني.

نظرت اليه الدكتورة فاتن جادة وبصوت عال ولإنكار ما يقوله وكأن الأمر ابتدعه الناس فقالت:

- إن الإيمان فى القلب، وإن الإنسان ما دام لا يؤذي الآخرين فهو غير مذنب أمام اللّه.

استغرب يونس من كلامهما فعلق قائلاً:

- ان الحجاب فرض على كل مسلمة بالغة، وقرأ الآية القرآنية التي تتضمن فرض الحجاب" وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ". سورة النور آية (٣١).

بعد فترة وجيزة، خرجت الدكتورة فاتن مسرعةً كي تلقي محاضرتها، بينما جلست الدكتورة نوال لتستمع لما يقوله دكتور يونس، فكان هناك متسع من الوقت لهما، وقد انتهي الحديث وذهبت الي مكتبها وجلست تفكر فيما قاله. وقالت فى نفسها: ما الذي جاء بي الآن الي مكتب يونس؟ ومما يثير سخريتي من نفسي هو أنني غير محجبة وقد سخرت من كلامه أول الأمر، وكأنني لا أفهم فى الدين شيئاً! ولم أشارك فى أي مؤتمر ذو

ثقافة دينية أبداً. بل وأتعجب من المثقفين العرب الذين يصدقون كل أكاذيب الغرب، ويقتنعون بكفاحهم والمخاطر التي تهددهم نتيجة صراعهم مع الإرهاب فى بلادهم بل وفي بلاد المسلمين! الحياة قد تكون فى بلاد الغرب منظمة بشكل كبير وهادئة جداً، لكن ليست الشعوب سعيدة لماذا؟ أنا نفسي لا أعرف السبب، ولكن أعتقد هو البعد عن الدين، أنني لازلت أشعر بالوحدة والوحشة، لم اتزوج حتى الآن على الرغم من أن الكثير يكنّ لي شيئا من المودة لحظة مشاركتي لهم فى أي عمل أو شأن ما، لقد انتبهت الآن.

الفصل التاسع
الأيام المسفوحة

وفي يوم ما ، حينما كان دكتور يونس فى قاعة المحاضرات، اشتكى له بعض الطلاب من ارتفاع سعر الكتاب الواحد بالكلية خلال الفصل الدراسي الواحد ، وقد تحدث معه وعن معاناتهم بسبب فرض بعض الأساتذة على الطلبة اقتناء كتبهم وكان من بينهم عميد الكلية فقال يونس فى نفسة: لا يمكن أن يتحول الأستاذ الجامعي إلى بائع للكتب فى قلب الجامعة، ان الأستاذ الجامعي له رسالة نبيلة تتمثل فى إنتاج النخب الفكرية والثقافية والعلمية، وأن إنتاج الكفاءات داخل رحاب الجامعة لا يمكن أن يكون عن طريق منطق البيع والشراء وبعد أن فرغ من محاضرته ذهب للتحدث الي العميد عن معاناة الطلاب، دخل مكتبه وبعد مراسيم الترحيب له، طلب أن يسمع ملاحظاته فقال له أن ملاحظاتي ربما لا تعجب سيادتك، وربما ستنزعج منها، فنفى ذلك وأصر على أن يقول ما لديه وبصراحة شديدة، فقال له كلاماً وكأنه كان قد أعدّه، لأنه لم يتوقف ولم يتردد فى سرد ملاحظاتها الجريئة عن الأخطاء التي لاحظها، ثم فجأة كان أكثر صراحةً له فقال:

- سيادتك تحولت الي بائع كتب داخل الكلية.

شعر العميد بالغضب من كلامه الصريح وانزعج جداً، وكأنما أراد أن يتحدى ما قاله، فقال له:

لا يعنيني ما تقوله وسوف تحاسب على ما تفعله!

فقال له يونس بارتباك وخوف.

هناك من يسمع صوتنا بالجامعة.

فقال له بحزم وبنبرة آمرة:

قلت لك إنه لا يعنيني. تفضل وأشار بسبابته الي الباب.

رد عليه يونس وهو يتأهب للخروج:

أنك شخص معقداً ومريض.

لم يمر يونس بتجربة مؤلمة فى حياته مثلما مر خلال هذين الأيام، فحينما علي صوت العميد معه، أحس أن العالم كله اصطدم فى رأسه، أحس بالاختناق والتمزق، جحظت عيناه وأرادتا أن تقفزا من محجريهما لو كان ذلك ممكناً. أحس بالإذلال والانحطاط، ابتعد عن مكتبه وحينما خرج وظل العميد يسبه ويشتمه، وقد تعالت الأصوات فى غرفة العميد من بين السكرتارية والموظفين وبعض الأساتذة، بينما خرج يونس مسرعاً متجهاً الي مكتب دكتور سمير وحكي له ما حدث بينه وبين العميد.

******

وفي اليوم التالي لم يكن يونس يعرف ما الذي يجرى خلال الأيام الماضية، منذ لحظة دخوله إلى مبنى الكلية ، ففي اليوم نفسه، تم استدعاؤه للتحقيق، وتم إلقاء القبض على دكتور محسن أستاذ الأوعية الدموية بالكلية نتيجة إخبارية كيديه رُفعت من قبل عميد الكلية إلى جهاز أمن الدولة ، و قد تناقش عن تدهور الوضع السياسي أيام المظاهرات الشعبية المجهضة قبل ثلاثة أشهر، وانتقد كلاهما النظام وأنه سيطر على الوضع وقمع المنتفضين، فقد ظل كلاهما يخاف أحدهما الآخر، وحينما وقع

العميد فى إشكالية شخصية معهما ، رفع فيه تقريراً يكشف عداء دكتور يونس ودكتور محسن للنظام والثورة وانهما يسربان بعض المعلومات عن علاقة النظام بالآخر ومنهم بعض الجماعات المحظورة ، فألقي القبض عليهما وفي التعذيب اضطر إلى الاعتراف بأنه مع أشخاص آخرين يلتقون ويبدون اعتراضهم عن النظام ، ومن بين هؤلاء دكتور سمير، الذي كان بين أيدي السلطة فى قضية أخرى.

فى ذات اليوم ألقي القبض على الدكتور يونس، فلم يقتصر أمر الاتهام بخيانة دكتور محسن للنظام والثورة والرئيس القائد، بل شمل يونس والدكتور سمير والدكتورة نوال وخاصة بعد حجابها. تم اعتقال الجميع، بعد أن دخلوا الكلية فى ذات اليوم صباحاً، حيث أقتحم أمن الدولة وعدد آخرون وقفوا عند باب المكتب وفي أسفل مبني الكلية التي تقع بها مكاتب الأساتذة.

******

في شهر يونية عام ٢٠١٣م، أُعطى انطباعاً لدى قطاع واسع بأن جماعة الإخوان صعدت إلى قمة السلطة ولن تغادرها لزمن قد يطول، لكن النبرة الواثقة التي كان يتحدث بها قادة الإخوان والذين وضعوا أيديهم على مؤسستي الرئاسة والبرلمان، لم تخفف القلق من تنامي تحركات احتجاجية تزعمها قادة جبهة الإنقاذ الوطني، التي تشكلت عقب إصدار الرئيس السابق حينها إعلاناً دستورياً حصن قراراته، وضمت غالبية القوى المدنية، ورموز المعارضة المصرية. وترقب الجميع فى مصر انطلاق ثورة أخري،

ليعرف ما إذا كان قادة جبهة الإنقاذ، قادرين على الحشد فى مواجهة أكبر فصيل منظم فى البلاد بعد أن باتت معه السلطة أيضا، وجاء الحشد الجماهيري فى الثورة مفاجئاً لمنظميها وللقوى الإسلامية وعلى رأسها جماعة الإخوان.

******

دخل يونس إلى غرفة التحقيق الواسعة وكأنها قاعة كبيرة، ومعتمة إلا من مصباح يتدلى من السقف الإسمنتي وينشر ضوئه الفقير على مساحة قليلة فوق رأسه والطاولة التي أمامه وكذلك رأس المحقق الذي جلس على الكرسي المقابل، نظر المحقق إلى يونس وسأل بنبرة قوية واستفزازية.

- هل فكرت؟ أخبرني الآن عن كل شيء، لماذا تنتمي الي هذا التنظيم؟

ارتسمت ملامح الرعب على وجه الدكتور يونس، وقال:

- أنا لم أنتمي الي أي تنظيم؟ ولماذا أنتمي؟

ابتسم المحقق ابتسامة صفراء مليئة بالحقد البارد. وقال بهدوء مصطنع:

- نحن نريد أن نعرف لماذا؟

كرر يونس بصوت حاسم قوله.

- أنا لم أنتمي؟

صاح المحقق مقهقها وساخراً بطريقة مصطنعة، ثم قال غاضباً بطريقة استفزازية:

- رجعنا إلى نقطة الصفر. لا تجبرني أن أنتزع الاعتراف منك بالقوة، هل تفهم؟

- أنا لم أنتمي الي أي حزب سياسي ولا أي جماعة.

صاح المحقق به غاضباً، وقال:

- أسمعني جيداً. كل الدلائل تشير أنك تنتمي الي جماعة منظمة، بل لدينا معلومات خطيرة عنك، كنا نتصور أنك أحد الناس المؤيدين للثورة واتضح لنا العكس.

ارتعب يونس عند سماع هذه الكلمات، فالقضية أخذت مجرى آخر، لقد كان مطمئنا خلال الأيام الماضية من البراءة، لكن القضية الآن أخذت بعداً سياسياً، ولم يفهم الذي يقصده المحقق.

صمت يونس للحظة ثم قال له مرعوباً:

- أنا لست ضد الثورة، ولا أنتمي الي أحد ولا أسير فى مظاهرات. وأنتم تعرفون أنه ليس لدي أي شيء يسيء الي الدولة. وليست لدي أية اهتمامات سياسية أصلاً.

صمت المحقق لحظة، ثم قال له بطريقة مراوغة.

- من كان يزورك فى مكتبك أيام التحركات الاحتجاجية التي تزعمها قادة جبهة الإنقاذ الوطني؟

- لا أحد.

- لا أحد؟ هل تستغفلنا أيها الحقير!

فجأة، وبدون أي توقع، أحس يونس بصفعه قوية ومدوية على وجهه فكاد أن يقع عن كرسيه إثرها.

- حقير. نحن نعرف كل شيء عنك وعن نشاطك ضد النظام.

- أقسم لكم باللّه، لم يزرني أحد فى مكتبي غير زملاء العمل.

- ومن غير زملاء العمل؟

-لا أحد؟

صفعه المحقق ثانية صفعة أقوى من الأولى فسال دم من شفتيه، وهو يقول:

- وهذه كي تتذكر أيها السافل الحقير. كنا نحترمك لكن اتضح أنك لا تستحق سوى أن نضع الحذاء فى فمك يا حقير. ألم تقابل دكتور محسن فى مكتبك بالكلية؟

تذكر يونس أنه قابل هذا المدعو دكتور محسن الذي يكلفه بإنجاز بحث علمي مقدم للحصول على جائزة الدولة التشجيعية، ولكن هذا البحث ليس له علاقات بأزلام السلطة، وأنه لم يزره فى المكتب سوى مرتين، وفي كلا المرتين لم يكن أحد فى المكتب، فالدكتورة فاتن كانت غائبة.

- صاح المحقق متجها بندائه صوب باب الغرفة.

- أيها المخبر. يا عفيفي.

دخل الغرفة رجل طويل القامة بشكل لافت، مفتول العضلات، أسود البشرة، حاد الملامح، واقترب على مسافة من المحقق مستعداً لحركة منه، قائلاً:

- نعم سيدي.

- شد وثاقه إلى الكرسي كي نؤدبه.

تقدم الرجل قليلاً ليتأمل يونس، ثم قال موجهاً كلامه للمحقق.

- لحظة سيدي، سآتي بالحبال.

******

خرج المدعو عفيفي من القاعة، أحس يونس بالرعب، فبرغم الخدر والورم اللذين يحسهما فى وجهه أثر الصفعتين، إلا أنه يخاف التعذيب الجسدي، ولا يتحمله، وهو مستعد أن يقول لهم أي شيء يريدونه، لكنهم يسألونه عن أشياء ليست له علاقة بها، فهو لم ينتمي الي شيء، وليست لديه أية نشاطات سياسية، ولم يخطر فى باله أي شيء يمكن أن يفسر بأنه يعارض النظام، إنه لا يفهم ما يدور حوله أحياناً. كان المحقق يدخن سيجارته وينفث الدخان إلى الأعلى ويتأمل تطايره فى غيوم صغيرة تتعالى نحو المصباح ثم تتبدد فى العتمة التي تحيط الغرفة من جميع جوانبه.

دخل الرجل إلى الغرفة ثانية وبيده حبل متين. اقترب من يونس وأخذه من يديه التي سحبهما إلى الخلف على جانبي الكرسي وبدأ يشدهما إلى الكرسي ثم بدأ يدير الحبل على صدره ورجليه، إلى أن صار يونس جزءاً من الكرسي. وكان يونس مستسلماً لمصيره. وفي تلك اللحظات بالذات حاول أن يتذكر وجه أمه.

دخل دكتور سمير أيضاً إلى غرفة التحقيق الواسعة وهي ذات القاعة الكبيرة، والمعتمة التي يتدلى منها مصباح من السقف

الإسمنتي وينشر ضوئه الفقير على مساحة قليلة فوق رأسه والطاولة التي أمامه وكذلك رأس المحقق الذي جلس على الكرسي المقابل، وينظر المحقق إليه ويسأله بنبرة قوية واستفزازية ايضاً، وكذا دكتورة نوال.

******

حضر عادل الي المطار مبكراً وتخطي الإجراءات وغيرها ثم دخل الي صالة المغادرون، وقد جلس فى مقعد على رواق الطائرة خلال مدة الرحلة المحددة للوصول الي روما وعندما ركب الطائرة، جلس بجواره أحد رجال الأعمال المصريين الذين يمتلكون شركات كبري فى العاصمة الإيطالية روما، وبعد أن تبادلوا التحية، قال له: تصور أنني بعد لقائي بك فى فرنسا ألتقي بك هنا فى مصر.

أراد عادل أن يبين معارفه فى التجارة والاستثمار، وأخذ يردد المعلومات التي يعرفها ممن حوله وكأنها معارفه الشخصية، ولكونه ليس صاحب المعلومات الرائعة أساساً، ولأن الاستثمارات الهائلة هذه ليس حقله، فأفسد المعلومات لأنه وضعها فى غير موضعها، فحصلت بلبلة فى النقاش بينهما. علي الرغم من أن عادل يمتلك شركات كبري ولكنه لا يعرف فن ادارتها، فكان لا يستطيع أن يدافع عن رأيه ولا أن يواصل النقاش، مما عكر عليه مزاجه ذلك اليوم كله وظل غاضبا من نفسه بسبب هزيمته فى النقاش، نعم هزيمته، لأن كل شيء لديه هو معركة، فهو لا بد أن يخرج منها رابحاً أو منتصراً ، وهذا الأمر يتكرر فى

أوساط أصحاب الشركات العملاقة فى أوروبا خاصه، فكثيراً ما يسمع آراء استثمارية فيتبناها وكأنها رأيه، وأحياناً تكون هذه الآراء متعارضة ومتناقضة كتناقض التيارات والمذاهب السياسية، لكنه فى هذا المجال حينما يُحاصر يستطيع أن يجد منفذا، لأنه بالأساس تاجر فى مجال بيع السيارات ، أما فى مجال الاستثمارات العقارية او مصانع المركبات التي يمتلها وغيرها من الأنشطة التجارية فلم يكن سوى استعراضي بائس لم يجد من مفر سوى إثارة البلبلة ثم التراجع، التفت إليه صاحبه فقال له:

على أية حال. أرجو أن تنتبه لنفسك. سأحاول الاتصال بك على المكتب. هل يمكنني ذلك؟

بكل تأكيد.

- هل هذه الاستثمارات خاصة بك أم لديك شركاء؟
- بالتأكيد. الشركات جميعها لي وحدي.
- هل لديك شركات استيراد وتصدير؟
- نعم. لدي الآن شركات استيراد وتصدير.
- ألا يضايقك أن أتصل بك ويكون بيننا عمل مشترك؟
- أبداً. وأتمنى أن تشرفني بزيارة بمكتبي الرئيسي.

-هذا شيء صعب الآن. لا أعدك فيه. فعندي أعمال كثيرة والوقت محسوب، ولكن لابد أن أراك عن قريب.

- ما نوع العمل الذي تريد الاستثمار فيه؟

- سوف تعرف كل شيء فى وقته.

أحس عادل ببعض الخوف، أحس أنه يدخل منطقة مليئة بالألغاز، ثم همس فى نفسه: بدأت أخاف منه، لم انتبه لهذا الأمر، لكنه أرتاح بأن هذا الشخص من رجال الأعمال المصريين وليس من أتباع السلطة، لذا يمكن الحديث معه بحرية. لأنهم تناولوا أيضاً الحديث فى بعض القضايا السياسية.

عاد عادل وسأله:

- أي نشاط تريد أن نعمل به؟

دعنا من هذا حالياً، سنفكر فيه لاحقا. بيننا التليفون، وأنت أيضا يمكنك زيارتي بشكل متواصل، لكن عليك الانتباه على نفسك.

******

وصل عادل الي صالة الوصول بعد تخطي قائمة الانتظار واستلام الأمتعة وغيرها من الإجراءات وعند خروجه من صالة الوصل، وجد الناس يرحبون القادمون ووجد فى انتظاره زوجته وأبناءه وأحد كبار موظفيه وهو بمثابة صديقه منذ بداية عملة فى الاستثمارات الضخمة، يستقبلونه بالأحضان.

زوجته الآن فى الأربعين من عمرها وأبناءه فى سن المراهقة فى السابعة عشر والثامنة عشرن فزوجته تعلم أن سفره عنها ولو لأيام قليلة هي فترة شديدة عليها بل وعلى أبناءه، فهي تحب عادل وهو يساعدها على الإحساس ببهجة الحياة وقد استمروا على هذا الحال أكثر من عشرين عام، وبدأوا يستقبلونه بالأحضان والقبلات.

******

حينما علمت السيدة كريمان بما حدث ليونس من سجنه وتوصيف ما قد يراه من عمليات التعذيب أحست بالرعب، وأحست بانقباضات فى قلبها وضيق فى تنفسها، ولم تتمكن من البقاء فى البيت وذهبت لرؤيته، لكن لم يسمح لها أن تعرف مكانه، إذ أحست بضرورة الذهاب إلى مسئول ما ليساعدها وتقص علية ما حدث وذهبت أيضاً إلى مكتب المحامي. ان الرعب الذي سيطر عليها سبب لها مرضاً حقيقياً، لقد كانت أمه مرعوبة وشبه منهارة، قضت وقتاً طويلاً فى العلاج. اصابها مرضاً قوياً طرحها بالسرير، وتتساءل هي: هل حقاً تحدث يونس فى السياسة وعن السلبيات التي فى بلادنا؟

كانت الساعة الثالثة عصراً من يوم واحد الي ثلاثة أشهر هي زمن الأيام المسفوحة وهم يجلسون على حصير الألم وينتظرون ساعات الفرج، الدقائق أثقل من جبال الأوهام وهي تصارع مد البحر من زمن الله، ويقول يونس فى نفسه: كم تحتاج عقارب الساعة من القوة لتتغلب على جاذبية الوقت الطويل؟ يتذكر قلب أمه، يتذكر أمه. مغلقة الأبواب بإحكام، يسمعون صرير المزلاج وللأقفال التي تمارس دورها الذي خلقت من أجله والعتمة التي تملأ المكان، فى البداية كان من المتعذر ان يري شيئاً غير الظلمة تتحول شيئاً فشيئاً الي صديق تقاسمه الوقت. وليس مهماً السرير وصلاحيته للنوم عليه، بل المهم ان يكون استعداده النفسي قد تم لمواجهة الأسوأ، بجواره صاحب طرقات على الجدار بشدة وتحدث الي يونس بصوت عال:

يا رجل، لا تخف. انا معتقل مثلك. سمعت خطواتك عندما قدمت الي هنا، لم أكن قد اطمأننت بعد حتى تأكدت أنك لست من ضباط المعتقل، وسمعت تلاوتك للقرآن.

وماذا تريد مني؟

لا شيء. فقط أشعر بالوحدة، فأردت أن أسري عن نفسي.

من انت؟

انا معتقل لأني من الجماعات الإسلامية.

وماذا فعلت حتى تكون هنا فى هذه الزنزانة؟

مجرد خطبة فى مسجد.

خطبة!!

والله خطبة.

وأنت ماذا فعلت؟

جلست مع أحد زملائي بالكلية وكان ينتمي لجماعة إسلامية محظورة.

فقط جلست!!

نعم. فى كلية الطب.

هل أنت طبيب؟

أنا مدرس بكلية الطب.

أستاذ جامعي وفي كلية الطب ويأتوا بك هنا؟

نعم.

وبدء يونس يتساءل فى نفسه ، لماذا انا هنا؟ وما الذي جاء بي هنا؟ وكم سأمكث فى هذه الزنزانة ومتي أخرج؟

******

وفي صباح اليوم التالي لم يكمل يونس فطوره، حتى دخل عليه ضابط كل يوم، لكن هذه المرة ابتسم فى وجهه كصديق، وأشار اليه وقال:

- هيا.

- الي أين؟

- سوف يُفرج عنك مع الدكتور سمير والدكتورة نوال ولكن بعد تحقيق بسيط، وسوف تري نفسك خارج هذه الجدران عائداً الي أهلك والي عملك.

حدق يونس فى وجه الضابط فرحاً ثم انفجر مقهقهاً ثم فجأة يصيح فرحاً منفلت من مشاعرة التي كان يوما لا يستطيع فهمها وظل مبتسماً وكأنه لم يصدق ما يسمعه.

******

خرجوا وقد مر شهرين وجاءت موافقة المحكمة الخاصة بإعادتهم الي العمل على اعتبار ان يونس وزملاءه ليس لهم علاقة بأي نشاط سياسي، وهذا يعني منحهم العودة الي الكلية، وخلال هذين الشهرين تكشف ليونس بعض جوانب مشهد المعارضين المصريين للنظام وصراعاتهم التافهة، ومبالغاتهم السياسية وإيلاء الأهمية لأنفسهم ودورهم، فأصيب بالإحباط الفكري والسياسي الذي لم يهتم به من قبل، ووافق علي منحة

الدراسة فى جامعة سنسنتاني الأمريكية وسافر اليها وقد مُنح جواز سفر وإقامة دائمة تتجدد كل سنتين أو أكثر، ويعني هذا أيضا إمكانية السفر إلى بلدان أوروبا وبعض البلدان الأخرى.

الفصل العاشر
الحــب والحــياة

مر أسبوعين منذ أن وافق الدكتور يونس على السفر لاستكمال الدراسات العليا وقبل الموعد المحدد بأيام من سفره الي أمريكا، سافر مع أمه إلى خالته فريدة الساكنة فى المدينة التي تقع فى الطريق المجاور إلى شقتهم الجديدة وعندما وصل وجلسا مع عائلة خالته سمع قصصاً عجيبة وغريبة، سواء معاناة الدارسين العرب فى الجامعات الأمريكية وفي البلدان الغربية، ومعاناة وصول العرب إلى بلاد الغرب.

سوف يسافر يونس لاستكمال دراسته فى تلك الجامعة العريقة، وأن هذه الرغبة لم تستطع أمه كبتها فتجلت لها وكأنها تراه عالماً حازقاً؟ لاسيما أنها كانت مثابرة معه بشكل كبير، لذا فهي كانت ترغب وتعمل دائماً على تشجيعه ولاستكمال دراسته، وغادر يونس مصر من مطار القاهرة متجهاً إلى ولاية اوهايو الأمريكية، حيث تتم مقابلة الدارسين فى جامعة سنسناتي. لقد أسعفه الحظ فقد تحملت الجامعة مسكنه الجديد فى مدينة أوهايو، وبجوار جامعته، ويبدوا أنه سكن مختلط.

حينما استيقظ يونس فى غرفته وكان هذا أول يوم له للذهاب الي كليته، وقف أمام المرآة يمشط شعره، ثم يلتقط واحدة من أربطة عنقه استعداداً الي الذهاب ، الساعة السابعة يحمل حقيبته التي فتحها ليطمئن علي محتوياتها وقد أمسك بالدمية التي لازال محتفظاً بها فهي أكثر الأشياء التي تعلق بها، خاصة منذ وفاة أخته زينب، فهي لم تفارقه منذ صغره ، اتجه الي الكلية ، ثم

عاد الي مسكنه وقد قضي يوماً مثالياً الي حد ما فى دراسته خالياً من المشاكل، وعند عودته تعجب من وجود بعض الشباب والفتيات الذين يعيشون فى غرفة مختلطة.

******

في مساء ذات اليوم أغلق يونس باب غرفته، ذهب إلى غرفة الاستقبال وجلس لدقائق يشاهد التلفاز، ثم ذهب إلى المطبخ وأعد لنفسه قهوة، أطفأ الطباخ وفجأة دخلت علية فتاه أمريكية تسكن فى نفس الشقة بالغرفة المجاورة، مضت إلى غرفة نومها وألقت بنفسها على السرير وكان بابها مفتوحاً، استغرب مع نفسه وبدأ يفكر فى جارته هذه، ويقول فى نفسه: لماذا تعيش هكذا؟ ولماذا ضيوفها من الرجال والنساء معاً؟ ان هذا المسكن لا يجوز العيش فيه! سكن مختط من الشباب والفتيات، كيف لي الاستقرار به؟ دخلت عليه غرفته لتتعرف عليه وقد استعادة الفتاة مع نفسها وجه حبيبها القديم، نعم ان يونس يشبه حبيبها الأول بل وأكثر وسامة منه، وبدأت استحضار صورته فى ذهنها.

******

وفي اليوم التالي سمعت الفتاة حركة على درج البناية فخمنت أنهم ضيوف جارها يونس، فنهضت بسرعة وفتحت باب غرفتها فتحة ضيقة جداً تسمح لها بمشاهدة من يمر من الصالة إذا دخل، فلمحت رجلين، وأغلقت الباب بسرعة، شعرت بالراحة لأنهما كانا رجلين فى ضيافة زميل آخر بالغرفة المجاورة لهما، سألت الفتاة نفسها: ما لي ولحياته؟ لماذا أحسستُ بالراحة لأنهم جاءوا لأصحاب الغرفة الأخرى ولماذا اراقب حركته هنا؟ هل كنت

أغـار لـو لم يكـن هنـاك ضـيوف أو صـديقة لـه مـثلاً؟ أحسـت بمشاعر مختلطة، وبرغبات متداخلة ولم تفهم نفسها وماذا تريد حقا؟ عادت الفتاة إلى صالة الشقة. جلست على الأريكة، ثم أخذت جهاز التحكم وضغطت عليه، فظهر على الشاشة وجه جميل جدا لفتاة محجبة، وانتبهت من خلال اللغة والمكان الذي تجري فيه الأحداث إلى أن القناة الأمريكية تبث فيلما لبنانياً بترجمة مكتوبة على الشاشة، ظلت تتابع الفيلم الذي أعجبها أناقة البطلة وجمالها فى الحجاب.

خرج يونس من غرفته متجهاً الي المطبخ، انتبهت الفتاة إلى أنه قد لاحظ كل شيء عليها لكنه لم يعلق فى حينها لأنه وكما يبدو مشغولاً بالفعل، خرج من المطبخ وقد دخل غرفته وأغلق عليه الباب. حملت صينية طعام وذهبت إلى الصالة، فقد كان كثيراً ما يأكل هناك على الطاولة المجاورة للكرسي وفي منتصف الغرفة. جلست ناظرة الي غرفته، كما لاحظت أنه لم يعترض على بقائها فى الصالة من قبل، فالجميع يجلس بها لا سيما فى أوقات الفراغ، تنظر إليه من حين لآخر، فهو كثيراً ما كان ينزعج حينما تظل تتأمله وهو فى المطبخ أو هو يأكل طعامه فى صالة الشقة.

******

كان يونس دائما غارقاً فى تأملاته، فلم ينظر إليها قط، كان ينظر فى صينية طعامه إذا أكل، ويأكل بهمة ونهم وكأن عليه انجاز مهمة سريعة، لم يكن ليونس هناك مجال للاختلاط بأحد

من الشباب والفتيات فهو يشعر بالراحة لوحده، وهي دائماً تشعر أن فكره فى مكان آخر، هذا واضح من نظراته الشاردة ووجهه المتعب، وعدم انتباهه لها، وتهمس فى نفسها دائما وتتساءل: يا ترُى فيما كان يفكر؟ وبماذا يفكر؟ وكثيرا ما كان يونس يتعجب من طريقة الحياة الغربية هناك، ودائما يتساءل فى نفسه: ما هذا؟ ان هذه الأمور غريبة على مجتمعنا العربي المسلم! كنت أعتقد أن الدول الغربية قد تراجعت عن فكرة الاختلاط فى المسكن، فالفطرة السليمة السوية تمنع ذلك الاختلاط فى غير محله! وبدأ يفكر فى الانتقال إلى سكن آخر ليعيش فيه وحده ولكن كان ينقصه الدعم المادي الي حد ما.

في اليوم التالي وضعت الفتاة الماء فى الدورق الخاص بغلي ماء الشاي وأشعلت الطباخ، ثم صبت لنفسها صحنا من الطعام ووضعتهما فى صينية صغيرة وجاءت إلى الصالة، وجلست قبالته وبدأت تأكل، انتبه إليها فكانت فى ملابسها العارية وقد جاء إليها صديقها وبدأوا يمزحون، ترك مكانه ودخل الي غرفته وأغلق عليه الباب.

******

حينما دخل عادل إلى غرفته نومه فى ليلة أحد الأيام، استلقى على السرير العريض سارحاً فى أفكاره حول الحياة وزوجته، وانتبه إلى ما هو فيه الآن من الثراء والأعمال؟ فكّر مع نفسه بأن الله أراد له هذا، ثم يعود ويقول ولكني قد لا أستحق وبدأ يفكر وكأنه مشروع مفكر وحكيم ولو انتبه لنفسه وتقنياته اللغوية

والفنية والعلمية لأصبح حكيم الزمان، بل ويجذر نفسه أحياناً ان يدخل فى آمال رجال الأعمال الفاسدين الذين من المؤكد أنه سيتقابل بهم يوما ما.

أخذ يسترجع كل اللحظات من أول لحظة رأي زوجته فيها، وعندما أنجبت له أبناءه، راوده إحساس أشبه باليقين بأن الله أراد له هذه الحياة لأنه عانى كثيراً من قبل وراودته أفكار غريبة وأحلام يقظة، فتصور نفسه فى الجنة. فقد أصبح عادل من أكبر رجال الأعمال فى الآلات والمركبات والروبوتات وأصبح المبدع فى مجال الأعمال، وفي قطاع الاستثمار وصاحب أكبر مجالات تنافسية فى العالم، ودائما ما يتوجه برفقة أسرته لإنهاء بعض الأعمال الخاصة بشركاته فيوجه برحلات متتالية الي أمريكا ثم إلى ألمانيا ثم تركيا ثم يعود الي إيطاليا.

******

مر شهرين على دكتور يونس وعلي حاله حتى انتقل إلى مسكن وحده، فقد واجه فى بداية سفرة عدة تحديات من أجل الحصول على الدعم المادي، ولكن كان أغلبها يتعلق بوضعيته فى بادئ الأمر كطالب، ثم حصوله على العمل فى ذات الكلية، فكان لا يملك الإقامة الدائمة وما تحمله من مزايا. لم تكن هناك أية عراقيل واضحة ذات صلة بهويته العربية والإسلامية، ولا أي موقف معينًا انتابه فيه شعور بالاضطهاد. هذا لا ينفي بالطبع وجود تجارب مغايرة لبقية الطلاب العرب والمسلمين. إن غياب هذه النوعية من العراقيل فى مسيرته التعليمية لا يعني أبداً أن حياته

كانت خالية من الصراع الذاتي حول الهوية وخاصة صراحته الصادقة، وتمثل ذلك حول إمكانية خلق حالة انسجام وتصالح دائم فى هويته العربية والإسلامية مع واقعه الأمريكي الجديد.

توقف يونس كثيراً عند نقطة عدم الانجراف وراء ردود الفعل المبالغ فيها فى تجاربه الحياتية اليومية. ولكنه كان يعاني من التعامل مع المواقف ذات الطابع العنصري كإيقافه المتكرر فى المطارات للتفتيش المضاعف أو تلك النظرات التي يحملها بعض المارة إليه أو بعض الأصوات الغاضبة ولكن كيف يمكنه الاستفادة من واقع التسامح المتاح إلى حد كبير فى الولايات المتحدة فى تنقيح ثقافته الإسلامية بشكل يمكنه من تفادي الالتباس الديني الذي نشأ عليه فى مصر بين العادة والعبادة.

******

مرت السنوات الأولي ودكتور يونس يواجه الصراع النفسي حول الهوية فى بداية الأمر، وتعرف إلى عدد من الطلاب ممن تعثروا فى تعليمهم لعدم قدرتهم على التعامل مع هذا الموضوع بشكل إيجابي. فالبعض منهم قرر التقوقع على دينه خوفًا من تضييعه، وقابل بعض الطلاب ممن ترك ثقافته العربية والإسلامية وراءه واندمج فى الثقافة الأمريكية وعاش فى اضطراب نفسي بين تأنيب الضمير والحنين والشعور بالقلق المستمر، والبعض الآخر لم يستطع فصل ما يحدث للوطن العربي من مآسٍ عن ضرورة التحصيل العلمي، وعاشوا بذلك أزمة نفسية تملؤها الكثير من الطاقة السلبية وغير المنتجة.

كان يونس يعاني من عدم التوازن الصحي فى تعامله مع متطلبات الحياة فى الولايات المتحدة، وخاصة مع تداعيات التحولات السياسية فى منطقة الشرق الأوسط وارتباطها بطبيعة الخطاب الإعلامي والسياسي الأمريكي، ثم بدأ بالاستقرار النفسي والذي ساعده على إيجاد التوازن، ووضع الأمور فى سياقها الطبيعي، وإيمانه بأن المجتمع البشري بكل تنوعه مبنيّ على قوائم مشتركة تمكن الانسان من إثراء عالمه الخاص عبر التلاقح الثقافي.

بدأ يونس شيئا فشيأ يندمج مع زملاء العمل والدراسة وسهل له ذلك التواصل والتفاعل الاجتماعي مع المجتمع الأمريكي باختلاف دياناتهم وعرقياتهم ورؤاهم السياسية، بحيث تضيف كل تجربة تواصلًا إلى تكوين شخصيته بطريقة مكنته من الابتعاد عن خطر الوقوع فى فخ الصدمة الثقافي.

مرت سنوات دراسته وعمله بكلية الطب النفسي فى جامعة سنسناتي الأمريكية، ثم قرر العودة لخدمة بلده، ففي أغسطس ٢٠١٨م، وقبل مغادرته من أمريكا، تلقي تحيات كثيرة من طلابه وزملائه بالكلية ولاقي اهتماماً أكثر مما تعود طوال حياته، فقد كان زملائه بالكلية خاصة ممن كانوا متواجدين منذ بداية عمله ينظرون إليه كطبيب ماهر وعالماً حازقً فكان الأكثر نشراً للأبحاث العلمية.

******

استيقظ عادل صباح أحد الأيام، لم يجد فى نفسه الرغبة أن يذهب إلى العمل، لكنه اضطر لذلك لأن المؤتمر الخاص بأكبر

رجال الأعمال والمستثمرين سيبدأ بعد الفطور فى الفندق التابع لوزارة التجارة الايطالية فى القاعة الكبرى فى الطابق الأول فنهض متثاقلاً ودخل غرفة الحمام. فى قاعة الطعام لم يجد صديقه الذي أراد ان يراه. فتناول فطوره على عجل وصعد إلى الطابق الأول، حيث قاعات الاجتماعات وقاعة رجال الأعمال، متوجها إلى قاعة المؤتمر، وعند باب القاعة رأى رجلاً ايطالياً وضع أمامه عدداً كبيراً من البطاقات العاجية التي تحمل أسماء رجال الأعمال المشاركين ودولهم، إلى جانب بعض المعلومات عن المؤتمر وجدوله وقد لمح صديقه رجل الأعمال الذي كان ينتظره ومعه صديقة رجل الأعمال الذي قابلة قريباً بالطائرة وكانا يتحدثان مع إحدى المشاركين الأمريكيين.

******

وفي مساء اليوم التالي جلس عادل وزوجته بجوار المسبح الكبير فى منزلهما الفاخر والذي يتميز بالهدوء والرقي ويقع فى المدينة التي تتميز بأجوائها الساحرة فى مدينة لغوريا الايطالية، وكأنك تعيش فى زمن الإمبراطورية الرومانية، ينظر إلى زوجته، كان قد أنهى كأسه وأشار من بعيد لخادمه رافعاً كأسه بأنه يريد كأسا أخرى، لم يستطع عادل أن يتحدث بشيء معها، فقد كان مختنقا بالكلام، لذا أشار إليها وتحدث بهدوء، وقال لها:

- اذهبي الي النوم أريد أن اجلس قليلاً وحدي.

نظرت إليه، وقالت:

- أنا أجلس من أجلك أنت.

نظرت إليه بتساؤل ممزوج بتوسل خفي، وقالت:

- احكي لي لماذا تشعر بالاختناق؟

كان عادل يتجنب أن يفصح عما بداخله حتى لزوجته لذا كان يتعذر بأن هذا الأمر ليس من اختصاصها ولا يستطيع أن يقول لها شيئا، لكنه يرى أنها أمور كئيبة الي حد ما، ولم يكن أمامها إلا أن تذهب الي نومها وأبناءها أيضاً مستغرقين بالنوم، وكم تمنى لو كان مزاجه معتدل لجلسا وقال لها الكثير، وأختصر الكلام كله فى كلمة واحدة، بحبك، لكنه مختنق ولا يعرف هو ايضاً لماذا؟ تنظر إليه متسائلةً منتظرةً، ولو قال لها اجلسي لدقائق لجلست، ولكنه لا يرغب فى الجلوس مع أحد، كان يعاني من هذا متأخراً فهو فى حالة من التوتر والعصبية توشك أن تكون مرض الكآبة.

ذهبت الي غرفتها، أحس عادل وكأنه تركها وحيدةً. وخاف أن تشعر بأن هناك أمر غير طبيعي أو شيء ما برغم تعلقه وحبه الواضح لها، وحتى لا تشعر بأنه يحاصرها بثروته وبالسفر والرحلات والمنازل الراقية والعواصم الجميلة، فهي روح مليئة بالبساطة والطيبة وهي صاحبة فضل علية منذ اقامته فى بلادها.

اتجهت زوجته إلى المطبخ، فتحت الثلاجة وأخرجت الدورق الزجاجي الذي كان فيه بعض عصير المانجو، وهمّت بسكبه فى القدح الذي كان أمامها وفجأة قد دخل أشخاص غرباء المنزل ولم يشعر بهم أحد، فجأة أحست بوخزة فى مؤخرة رأسها، وخزة صغيرة لكنها مؤلمة جداً، ألم غامض وكأنه نبض أفيوني، ولم

تخرج كلمات مفهومه من فمها ولم تستمر سوى لحظة ربما أقل من رفة رمش. ثم الظلام. الظلام. ظهر خلفها تماماً شخص فى المطبخ، وفي يده مسدس كاتم للصوت، سقطت الزوجة على وجهها طريحة الأرض، وسقط الدورق الزجاجي متهشماً على الأرض، وتدفق الدم على الأرض مشكلاً بقعة كبيرة عند الرأس، وقد ذهب شخص آخر الي غرفة نوم الأولاد.

فجأة سمع عادل صراخاً وأصوات عاليةً، أسرع الي المطبخ، فوجدها قد تلقت رصاصات فى الرأس قاتلة، وتلقي الأبناء وهم على فراشهم رصاصات فى القلب قاتلة، صرخ عادل بأعلى صوته وسط جيرانه وقد سمع أحد الجيران ما حدث، هرول الي التلفون وأبلغ الشرطة، وحينما أجرت المباحث عملها الجنائي لكشف غموض الواقعة، اتضح ان القاتل كان تخطيطه لا ينصب على شيء الا القتل، لذلك بدأ الشك فى عادل كونه فى المنزل وفي مسرح الجريمة وقد يكون على علاقة بحادثة القتل بناءً على أسباب نفسية أو خاصة، لا سيما انه كان مخموراً. بعد معاينة مسرح الجريمة والكشف عما بداخله من الأثار والعلاقة بينهما، ومدلولات كل آثر، وقد اتضح من أثار البصمات والدم أن عادل ليس له علاقة بالجريمة وأن من ارتكبها هم أشخاص آخرون.

******

حينما عاد دكتور يونس الي بلده اتجه فى اليوم التالي إلى الكلية لاستلام عملة. جال بنظره سريعاً فى أرجائها، وأتجه بنظره الي مبني عميد الكلية، فوجد لافتةً على المكتب باسم

الدكتور سمير، فلم يتعجب لهذا فهو علي علم بحركة الترقيات الأخيرة لأساتذة الجامعات، دخل دكتور يونس المكتب، فلم يجد دكتور سمير بمكتبه، ولكنه وجد فتاة وإثنين آخرين داخل مكتبه وكانت الفتاه تتحدث معهما بالإنجليزية عن التوجهات الحديثة وأسس وتطور علم الميكروبيولوجي والعمليات الحيوية داخل الخلية البكتيرية، وكذلك ديناميكية النمو البكتيري وظروف نموها المختلفة، لم يجلس الدكتور يونس على أي كرسي، وإنما ظل واقفاً عند باب الغرفة شابكاً يديه على صدره مستمعاً لها. كانت فتاة محجبة، ترتدي قميصاً محتشماً وسترة تلقي عليها ملامح الرزانة والحشمة. لكن ما أثار دهشته أنها نظرت إليه مرات عديدة على الرغم من أنها لا تعرفه بتاتاً ولا هو يعرفها ايضاً، وبرغم ذلك أعجبه ما قالته وأوضحته فى حديثها معهما، فى نفس الوقت عاد دكتور سمير الي مكتبه رحب بيونس مصافحاً ثم احتضنه ورحب بهم جميعاً ثم قال له:

- نبارك لك على النجاح والتفوق دكتور يونس.

- شكراً.

نظرت إليه الفتاه مستغربة مما قاله والدها، وقالت مرحبةً به:

- مرحباً دكتور يونس، تحدث عنك والدي كثيراً.

نظر إليها وهو يتأمل وجهها، وقال بنبرة هادئة وخجل مستفهماً: والدك؟ هل يعرفني والدك؟

قالت: نعم.

ابتسم له دكتور سمير بطيبة وصاح مقهقهاً ثم قال:

- انهـا ابـنتي دكتـور سـلمي، مـدرس مسـاعد بقسـم الميكروبيولوجي والمناعة.

ارتسمت علامات الاستغراب على وجه يونس، وقال مرحباً:

- مرحباً دكتورة سلمي.

أشفقت عليه دكتورة سلمي، وأحست أن من واجبها أن تساعده إذا احتاج شيء، فهي تعرف أنه مر بظروف صعبة فى حياته وحينما خرج يونس من مكتب دكتور سمير، نظرت اليه الدكتورة سلمي، وكانت متأكدة أنها ستراه مرات عديدة، ذهب هو متجهً الي مكتبة وجلس على كرسيه وبدأ يفكر فى هذه المقابلة، ويقول فى نفسه: إن سبب المأساة الدائمة فى حكايات الحب العنيفة كما قرأت، تلك التي جاءت من سوء الفهم، حينما يشعر الرجل أنه انشغل بفتاه يراها هو لأول مره ثم يظن فى نفسه أنه أحبها، أو حينما تُعجب فتاه برجل أيضاً قد اعترف لها بحبه، ثم تعترف هي لوالدها بأن هناك شاباً يريد الزواج منها وهي تريد الزواج منه ولكن والدها يقول لها بأنها لا تستطيع الزواج منه فهو شاب بائس، فقير، وتقول له بأنه قد نشأ بينهما حب عاصف أو أنهما فى ريعان الشباب والحياة لازالت أمامهما، وأحيانا تقول إنها لا تستطيع الحياة بدونه، مع الأسف قد لا يسمع والدك بقية كلامك.

صمت دكتور يونس قليلاً، وكأنه يتحدث فى نفسه عن شيء قريب جداً من نفسه، وعن شخص يعرفه جيداً. وبعد أن طال

صمته همس فى نفسه قائلاً: غريب ما يحدث لي. لم يدر فى ذهني أبداً أن ينتهي بي الأمر إلى أن أجلس هذه الجلسة اللطيفة مع نفسي، واتحدث عن الحب وأعماقي وأحلل شخصية الآخر، كنت ذاهباً لألقي علية التحية، بينما أتضح أنني بعدها أجلس أفكر فى الحب. يا له من سوء فهم، ويبدو لي أن مآسي البشر تأتي دائما من سوء الفهم هذا!

******

وبعد مرور شهر، قد خرج عادل من سجنه المؤقت، وفي انتظاره وجد بعض أصدقاءه من رجال الأعمال وبعض موظفي شركاته، وكان الجو ضباباً وبارد لا يطاق، وفي سيارته ينظر من نافذتها الي الشمس وكأنه يكاد لا يراها ولا شفته تفترعن ابتسامة، فهو واحد خسر الكثير، خسر زوجته وأبناءه غدراً ويهمس فى نفسه: لابد للغضب أن ينفجر وللخونة أن ييأسوا حتى الموت.

******

حينما استيقظ عادل صباح اليوم التالي، على ضوضاء وصوت محرك سيارة قادم من حديقة منزلة، عرف حينها أن سائقه قد استيقظ وينتظره كعادته، والآن يسعى خادمة لإعداد القهوة، فأحياناً حينما يريد أن يحضر شيئاً عند الصباح، أو فى وقت متأخر من ساعات ما بعد منتصف الليل، كان يطلب من زوجته والآن هو يعيش وحده، والآن يقوم الخادم له فى أي وقت لإعداد ما يحتاجه، شاي أو قهوة أو عصير. لا يدري ما به، تراه يتوجه الي المطبخ وكأنه ينتظر إلى أن يري زوجته تذهب إلى غرفة الاستقبال، أو أن يري أبناءه يرتدون ثيابهم للذهاب خارج المنزل،

لقد أحس أن ثمة فراغاً نشأ فى حياته، وأن ثمة فتوراً يتغلغل فى أعماق روحه.

سابقا كان يتمنى أن ينظر إليهم نظرة رضى ومودة. كانت زوجته تحب شخصيته، وتحب سمعته التجارية والاستثمارية. وكان هو مليء أعجاباً بها وبأنوثتها وخبرتها فى العمل، لكنه الآن يعيش وحده، دخل إلى غرفة الحمام، أقفل الباب وتعري ثم دخل الحاجز الزجاجي تحت رشاش الماء، فتح الصنبور على الماء الحار والبارد معاً، فانهمر الماء البارد أولا ثم صار دافئا شيئاً فشيئاً إلى أن صار ساخناً قليلاً، ظل هو تحت الماء المنهمر عليه بقوة شارد الذهن، كان يفكر فى الأشياء الكثيرة التي مرت على ذهنه المتعب، لكن ما سيطر عليه هو عملية قتل زوجته وابناءه، إذ أخذ يفكر بكل تفاصيل هذه الجريمة.

لقد أُصيب عادل باضطراب نفسي نتيجة لتغير كيمياء المخ وهرمونات الجسم ، ضغط ما بعد الصدمة وأحس باكتئاب مزمن شديد وأصابه هواجس وهلاوس عن الموت مما حدث لزوجته وأبناءه، وأصبح يصاب بتأنيب الضمير، فأصبح يخاف أن يشرب الماء خوفاً من أن تكون مسممة، فامتنع عن الأكل والشرب والدواء، حتى فقد الكثير من وزنه، وأصبحت هيكلاً عظمياً، وعرضه أحد رفقاءه على أطباء نفسيين وصفوا له أدوية لم تفلح معه، وكان غير منتظم ويرفض أخذها، كان لا يستطيع النوم حتى إن الأدوية المنومة التي تنومه يوماً كاملاً كانت لا تجدى معه شيئاً ويستيقظ بعد دقائق من نومه ، قرر الطبيب إيقاف العلاج ، فتدهورت حالته.

******

مر أسبوع وفي مساء أحد الأيام، حينما دخل عادل إلى غرفة الحمام، أقفل الباب وتعري ثم دخل الحاجز الزجاجي كعادته ثم جلس بحوضه تحت رشاش الماء، فتح الصنبور أولاً على الماء البارد ً، ثم فتح رشاش الماء فانهمر منه الماء البارد، ظل عادل تحت الماء المنهمر عليه بقوة شارد الذهن، كان الماء بارداً ولكنه لا يشعر بهذه البرد، كان يفكر فى زوجته وأبناءه فهذا كله ما يمر على ذهنه المتعب، وسيطرت عليه عملية القتل هذه، إذ أخذ يفكر، وفجأة عرض نفسه للصاعق الكهربائي وهو فى الماء وتوفي على الفور منتحراً.

******

كانت الساعة فى التاسعة والنصف صباحاً، دخلت الدكتورة سلمي مكتبة الكلية تبحث عن كتاباً لها، فقد أرادت أن تكتب بحثاً علمياً فأخبرتها موظفة المكتبة بأن هناك نسخة منه استعارها أستاذ آخر، وأنه أراد أن يتصفحه فى المكتبة ويمكنك إذا كنتي فى حاجة ماسة للكتاب أن تنظري، فربما سيعيده قبل نهاية العمل، لأنه لم يرغب فى استعارته لفترة طويلة، وأشارت إلى الشخص الذي استعار الكتاب بشكل غير مباشر، وحينما التفتت حولها وجدت دكتور يونس يقرأ فى كتاب له فى التحليل النفسي وكأن ثمة شيء ما مسها، توجهت إليه لا إرادياً وجلست على الكرسي المقابل له ولم تفصل بينهما سوى الطاولة، انتبه إليها وتوقف عن القراءة، نظر إليها فابتسم هو تلك الابتسامة التي

نمنحها تعبيراً عن الترحيب والسلام، ثم رفع رأسه مرة أخري ونظر إليها وقال مبتسماً وبكل أدب:

- صباح الخير.

- صباح النور.

نظرت إليه مبتسمةً، وفي عينيها فضول فقالت مستفسرةً:

- هل تبحث عن موضوع ما فى هذا المرجع، لتكتب بحث فى شيء؟

- لا، أتصفح الكتاب لإعداد محاضرة لي فى فهم العمليات العقلية اللاشعورية.

راودتها رغبة غامضة فى أن تفتح معه نقاشاً، فسألته:

- لماذا أنت مهموم ومنزعج دكتور يونس، هل يضايقك وجودي؟

شعر دكتور يونس بالإحراج. وهمس فى نفسه هل حقاً يبدو على وجهي أني مهموم أو غاضب، ارتبك للحظات ثم قال وكأنه يبرر لنفسه:

- إنما تفاجأتُ واستغربتً لا أكثر حينما رأيتك الآن فى المكتبة.

سأل نفسه عن هذه المصادفة الغريبة التي سوف تجذبه اليها أكثر وهكذا يتعرف عليها أكثر، خاصة حينما تحدثوا عن البحث العلمي بشكل موسع، بل وتحدثوا أيضاً عن فكرة سمو وتعالي الشخصية الإنسانية عن طريق الحب وتجاوز الأنانية والبعث والكمال الأخلاقي للإنسان.

لا يدري يونس كيف انبثقت صورة اخته من أعماق ذاكرته وتجسدت فى ذهنه، اخته زينب التي يشعر دائماً بأنه سبب موتها، لاسيما حينما قالت إنه يمكن للحب الحقيقي أن يكون بدون وجود الشخص على قيد الحياة، لم ينبثق حينها فى ذهنه الحب العاطفي بين الحبيبين وانما تذكر اخته. لم يعد يركز على حديثها الفكري لكنه انتبه أنها رجعت فى الحديث عن سمو وتعالي الشخصية الإنسانية عن طريق الحب.

******

في صباح اليوم التالي، فى حدود الساعة العاشرة صباحاً، هبط دكتور يونس من مكتبه مسرعاً، متجهً بخطوات راكضة نحو قاعة المحاضرات، وهو يمر من الردهة المتجه الي القاعة كان يدس بعض الوريقات فى كتابه، ومتجاهلاً الطلاب والمارة، اندفع بخطواته ليلحق موعد محاضرته ولكنه فجأة توقف فقد وجد الدكتورة سلمي قريبة منه، ناداها بتمهل يناسب مفتتح للكلام الذي لم يعرفه ولا يفهمه طيلة سنواته الماضية، والذي لا يعرف كيف يبوح اليها به؟ نظر فى قلب عينيها ولم يقل لها شيئاً، وهي قد أسبلت رموشها النحيفة أمامه، ثم سألته لماذا ناداها؟ اقترب خطوتين خجلين واستعد للانكماش فلم تكن لدية الرغبة فى الإجابة، ولكنه أجاب وقال لها لا شيء، أردتُ أن ألقي عليك التحية لا أكثر.

شق موعد المحاضرة فى رأسه سكون هذه المصادفة، فزعه الموعد بداخله وكأنه صاعق كاد أن يشق رأسه، واستغربت

حركته الغير متوقعه، حركة نشطة مستعداً للانصراف وقد أجاب نظرتها: موعد محاضرتي الآن. فاتجه الي قاعة المحاضرة ليؤدي دوره المرسوم له، تنفس الصُعداء حينما وصل فى الوقت المناسب لبدأ المحاضرة، وكالعادة ما أن دلف الي هناك حتى بدأ ينظر يميناً ويساراً وكأنه يبحث عن شيء ما، بدأ محاضرته ولكن باله مشغول، حاول أن ينفض تلك الأفكار بعيداً عن رأسه وأن يفكر فى محاضرته، فبدأ كلامه عن الفرق بين الشعور واللاشعور، ثم وضح بأن اللاشعور هو مستودع الدوافع الجنسية البدائية عند الانسان، وهو مقر الحاجات الانفعالية والرغبات المكبوتة لديه، والتي تظهر فى زلات اللسان، ثم انتقل الي مفهوم المشاعر وقال أنها تجربة واعية يميزها النشاط العقلي الشديد، وبدرجة معينة من المعاناة أو المتعة، ثم أظهر لهم أنها قد تتشابك فى الحالة النفسية مع العاطفة والشخصية وأن المشاعر معقدة بطبيعتها، وفجأة غاص فى مشاعره التي لم يفهمها يوم ما، وحدثته نفسه المضطربة بالأمر، فجاوبها ليطمئنها بعد أن دمعت عيناه فى صمت، ثم استجمع كل أدبه وشجاعته ثم قال:

- ان مجرد وقوفي اليوم أمامكم يُعد انجازاً ودليلاً على أنني أهتم وأستجيب لكل شيء فى حياتي وبسرعة.

هز رأسه صعوداً وهبوطاً، أشتد غوصاً فى نفسه لم يقصد اهانة نفسه، انما هو فقط متأثر بشده مما قاله فى محاضرته والتي جعلته يغوص فى ماضيه وفي مشاعره الماضية الغامضة التي لم يفهمها هو من قبل، ولم يفهمها الناس عنه.

وهنا خيم الصمت على الجميع للحظات، فكانت هي أهم الملاحظات التي انتبه إليها الحاضرون من طلابه، ثم عاود الدكتور يونس حديثه فقال:

- كل شخص لديه معاناة واضطرابات نفسية معروفه أو قد تكون غير معروفه، قد تكون فوبيا أو اضطراب قلق، او وسواس قهري، أو اضطراب متلازمة النطاسي التوحدي فجميعها عمليات نفسية ووجدانية، ولكنها جزء بسيط من شخصيتك وليست هي صفتك الوحيد ولا تحددك كشخص.

خيم الصمت على الجميع، فقد وجدوا أن المحاضرة قد ملأها الألغاز، ثم واصل دكتور يونس متأثراً:

- أنت.

صمت للحظة ثم واصل قائلاً:

- هل لك أفكارك ومشاعرك ومواهبك وقدراتك المختلفة؟ أم أنك تنفرد بصفة واحدة فقط؟

نظر دكتور يونس الي الطلاب فلمح هناك تعاطفاً، فنكمش متأثراً بتعاطفهم له، فصمت للحظة، ثم واصل قائلاً:

- هل أنت بدين؟ تعاني من السمنة؟ هل تلبس نظارات؟ تعاني من قصر النظر؟ أو تعاني من فقدان السيطرة على الحركة؟ كل هذه الصفات قد ألاحظها فيك عندما أقابلك لأول مرة لكنها بالتأكيد ليست الصفات الوحيدة فيك.

صمت دكتور يونس للحظة وساد الصمت مجدداً، شعر أن هواء القاعة صار خانقاً، وشعر أن عالمة كله يرتج، وكأنه ينذر بانهيار مروع، التفت بكله إليهم ثم قال:

- أنا أعاني من متلازمة النطاسي التوحدي، فأنا لدي اضطراب فى جهاز الإدراك الحسي، ذلك يعني أن المناظر والأصوات والروائح والنكهات وملمس الأشياء المختلفة التي نختبرها كل يوم ويتعود عليها الشخص العادي، قد تسبب لي آلاما شديدة فالبيئة المحيطة بي والتي يجب أن أعيش فيها معظم الأحيان تبدو مؤذية لي، قد أبدو منطوياً أو غير اجتماعي ولكنني فى الحقيقة أحاول فقط الدفاع عن نفسي وعن حواسي.

عقارب الساعة تعدت الحادية عشر، يسمعه الطلاب باهتمام خلال شرحه المطول عن نفسه، كادت عيناه تدمعان وهو يقص عليهم ما يعانيه، فهو كان غير مهيأ للخوص فيما هو فيه، صمت للحظة، ثم واصل متسائلاً:

- لماذا قد تكون زيارة قصيرة لمركز التسوق مضنية بالنسبة لي؟ ربما يكون سمعي حاد أكثر من اللازم؟ مجموعة من الناس يتحدثون فى نفس الوقت مع صوت الإعلانات المذاعة، صوت آلات المحاسبة، أطفال يبكون، أناس يسعلون، صوت آلة قطع اللحم الحاد، طنين لمبات الإضاءة، كل هذه الأصوات ذهني لا يستطيع تصفيتها والتعامل معها بطريقة صحيحة مما يجعلها عبئا يصعب على تحمله، ربما تكون حاسة الشم لدي حادة أكثر من اللازم، رائحة السمك الغير طازج، الرجل الذي يقف بجانبنا لم يستحم اليوم، رائحة النقانق التي توزع مجانا، يصنعون المخللات فى الممر الثاني، لا أستطيع تجاهل كل هذه الروائح، مما يجعلني اشعر بالغثيان، تبدو لي الغرفة نابضة وتؤلمني فى عيني، أن الضوء ينعكس على كل شيء فى الغرفة ويشتت ما أري.

مـر عليـه وقـت لا يعلمـه الا اللّه، فاجـأه صـوت المـؤذن لصـلاة الظهـر، ونبهـه صـوت الأذان الجهـير المفـاجئ الـي اطالتـه فـى الحديث، فقال كلامه الأخير بعد أن صمت للحظات:

- كنت أفكر حرفياً. ذلك يعني إنني كنت افهم وأطبق اللغة حرفياً. فقد كان الأمر محيراً بالنسبة لي، فعندما تقول:

- الحيطان لها آذان، بينما تعني انه من الممكن أن يسمعنا أحد!

لا يعرف كيف مر الوقت عليه، انتهت المحاضرة ليلملم أغراضه بسرعه قياسية، ويلتقط أوراقه المتناثرة التي جمعها من فوق المنضدة الخشبية، أسند ظهره للطلاب بعد أن كوم الأوراق التي جمعها بلا ترتيب ووضعها فى حقيبته وخرج من القاعة متكسر الأركان ومتجهً نحو مكتبه، وقد بدأ ضوء الشمس يشتد.

******

تقريباً، ولكن فى ظل العمل، انتبه لنفسه بأنه بدأ يعيش حياة مزدوجة، فهو يعيش فى الكلية حياة علمية، وحينما يراها يعيش السمو الروحي حتى جاء ذلك اليوم الذي دعاه فيه والدها الدكتور سمير لزيارته، وكان يونس كأي شخص يحلم بحياة الاستقرار والسكينة، وبناء أسرة مثالية، بالطبع فهو يعلم أن تحقيق هذا الهدف لا ينجح إلا بالزواج وهنا لم يستطع التفكير خاصة بعد أن سهل عليه الأمر والدها، فطلبها للزواج.

عندما مرض الدكتور سمير، كانا يذهبان معه إلى المستشفى، ويبقيان عنده فترةً طويلة ثم يرجعان معاً، انتبت الدكتورة سلمي لخصال الدكتور يونس الإنسانية، فهو انسان

طيب، ومسكين، يعيش فى عزلة نفسية، ويبدو أنه عانى كثيراً خلال مراحل حياته الماضية. فقد كانت تحاول أن تبعد عن تفكيرها أي شيء قد تلاحظه فى شخصيته، فمثل هذه الأفكار قد دارت فى ذهنها! لكنها تعود لتسأل نفسها: ماذا ذنبه هو؟ لقد مات والده وهو صغير فى العمر، وترملت أمه، وضاع حقه وهو صغير بالعمر أيضاً، وهي تعرف بأن والدها يُحبه كثيراً، ويعطف عليه ويعتبره ضحية، لذا سعي لتزويجها له، وكان والدها رجل ذكي بل وحكيم، ولكن ليست فقط حكمة الكتب وإنما حكمة الحياة، فهي تثق بوالدها ثقة عمياء، وحين فاتحها بأنه يريد تزويجها منه، وأنه وجد لها الرجل الصالح والمناسب لم تفكر طويلاً، ولم تعترض، فهي تستلطفه أيضاً، لكن حينما أخبرها بأنه كان يعاني من اضطرابات متلازمة النطاسي التوحدي، انتفضت فى بداية الأمر، انتقدها والدها ولكنها موافقة على كل حال، علي الرغم من أنه لم يتحدث معها عن شيء من هذا، وقد ترددت كثيراً فى فهم شخصيته هذه من قبل.

أحياناً كانت الدكتورة سلمي لا تعرف هل هي تُحبه حقاً أم تستلطفه فقط؟ كانت فى حيرة عميقة مع أنها واثقة من وسامته وثقافته ومعارفه العلمية ويبدو أن هذه الأيام القليلة بينهما قد أضفت عليها نضجاً فأحبته، كان عليه حضوراً، كما أنها وجدته معجباً ومحباً لها.

******

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية مساءً حينما عاد الدكتور يونس إلى البيت حينما دخل البناية عبر الدرج الرئيسي والذي

يربط الطوابق بعضها ببعض. فتح باب شقته، فُوجئت أمه بعودته مبكراً، دخل دونما ضجة ولكنه ألقي عليهما التحية، ثم سمع فرحة أمه وهي تتحدث مع خالته فريدة عن أرث وأموال كثيرة فقد عرفوا أن عادل مات منتحراً. فجأة اجتمعت الدموع فى عينيها، فبعد شعورها بالطعنات الحادة التي غُرزت فى أعماق قلبها من قبل فى حق أبناءها اليتامى، والتي كانت كأنها ظلال كآبة مرت على وجهها، وتتذكّر حينما كان يونس صغيراً فى الخامسة من عمره، وحينما جاء عمه عادل البيت ذات ليلة ثملاً وعندما أوقفته هي على درج البيت تطلب حقها وحق أبناءها، تتذكر تشاجره معها وتتذكر عندما دفع يونس أرضاً حينما كان بالقرب منها، وكان واقفاً يبكي، خائفاً من هذا الشجار الذي انتهى بدفعهما جميعاً أرضاً! فهي لم ولن تنسى تلك الأيام، ثم غمرتها سعادة لا تعرف كيف تفجرت فى أعماقه. سمع منها الحكاية ولا تتخيل دهشته عندما علم أنه حصل على هذا المال الكثير، فبعد أن كان يونس لا يستطيع الاعتماد على نفسه، هو الآن أحد أغنى رجال العالم.

فكّرمع نفسه حول عبث الحياة! أمتلك الآن الكمية الهائلة من المال! ان حجمها أكثر مما أستطيع إنفاقها خلال هذه الحياة! يا إلهي! يا إلهي! لقد كنت أتساءل كيف احصل على حقي فى ميراث أبي من عمي عادل؟ وكأن الله أراد أن ما كان هو ما سوف يكون والذي صُنع لنا ما هو الا إرادة الله، كأن الله أراد أن يستثمر لي حقي فى ميراث ظننت أنه ضائع.

******

الخاتمة

في ليلة يوم الجمعة من شهر مايو ٢٠١٨م، كان القمر ساطعاً بكامل هيئته، دخل يونس علي أمه فى الغرفة التي كانت غرفة نومها ليدعوها لتناول السحور، فوجدها مسجيه على سريرها تغطي كتاب الله بوجهها. حاول إيقاظها فلم تستيقظ، وحينما رفع الكتاب عن وجهها، وجد عينيها مفتوحتين على آية قرآنية؟ وانتبه إلى الصفحة التي كانت تقرأها فى آخر لحظة من حياتها، والآية التي خطت تحت علامتها بالقلم.

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ❖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ❖وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) سورة الزمر: (٧٣ - ٧٤).

تعارضاً مؤلماً بين الحب والحياة والموت. الأمس كان سعيداً ولكن الفرحة لم تكتمل، وجاء الحزن والألم فى أوج سعادته، واغرورقت عينه بالدموع، فهو لا يستطيع ضبط مشاعره ويبصر نظرة الي الجثمان وهو يُحمل من النعش الي فوهت القبر. بدت أمه فى كفنها نحيلة كأن لا وزن لها، وينادي عليها يونس:

- يا أمي. يا أمي.

وتوارت عن ناظريه تماماً فلم يعد يري إلا ظلمة. وساطعته رائحة التراب، ومن حوله احتشد الرجال، وفي المقابر ارتفع لغط النساء

وانفعل برائحة التراب حتى عافت نفسه كل شيء. وهم بالانحناء على القبر ولكن يداً شدت على ذراعه وصوتاً قال:

- تذكر ربك يا دكتور.

- أنها أمي. لا أتذكر أحد فى حياتي غيرها، عشت معها أكثر من ربع قرن من الزمان. ألا تعني فى هذه اللحظة شيئاً.

وتردد من بعيد صوت كالعواء ثم دخل رجلان فطوقوا القبر فى نصف دائرة، وشعر بأعين الناس تحدق به أو تسترق إليه النظرات، وهو يعرف ما تعنية تلك النظرات، فهو لا يستطيع شد قامته الرشيقة، وكأنه غريباً فى منظره وملبسه. وسمع أحد الحاضرين يقول:

- تركته أمه وحيداً.

وبرز من الفوهة الترابي ومساعده فوقفا فوق سطح الأرض مرة أخري وأقبلا يسدان القبر فى نشاط وحيوية. ورتل الشيخ وردد التلقين وتساءل فى نفسه عما ستجيب به أمه. وقال فى نفسه إنها ستكون وحيدة حقاً، وها هو الخشوع يغشي جباه الحاضرين كسحابة صيف وانخفضت الأصوات فى نغمة حزينة موحية بالختام. ووقف الطابور فى حالة انتظار.

وثار يونس من جديد ولكنه أدرك أن الطقوس قد انتهت وتضاعف شعوره بالوحدة. وألقي على المقبرة نظرة شاملة فارتاح لأناقتها وتراءي له بين قضبان النافذة الصبار والريحان الذي على جدار القبر والأركان. وتحرك الناس فى بطء نحو الفناء فمضي الي الباب الخارجي ليودع المشيعين. وصافحته الرجال.

- شد حيلك.

- وسعيكم مشكور.

وأدركته الضجر وذهب الي الوحدة فى بيته وألحت عليه الرغبة فى أن يذهب الي قبر أمه مرة أخري ويلقي نظرة عليها، ويدعوا لها بالرحمة والمغفرة.

ولكن ما سر الراحة التي تبدو على وجوه البعض عند وفاتهم؟

وجهتُ عقلي لمعرفة الحكمةِ الإلهية من هذه القصة وعرفت أن طريق الحماقة والجهل والظلم يُمهله الله للظالمين وقد لا يُعجل لهم العقوبة لحِكَمة ما ويستدرجهم الله ليأخذهم على أقبح حالٍ وأشنع صورة، وعرفتُ أن هذه حكمة الله التي أرادها لعبادة.

تمت

❖ صدر للمؤلف دكتور محمد الشربيني داوود

(٩) كتب من أهمها:

١ - رواية ثالوث الشيطان – الجزء الأول منها بعنوان (الجثث المفقودة).

٢ - رواية ثالوث الشيطان – الجزء الثاني منها بعنوان (أشباح الخيتعور).

٣ - رواية الطيف الثائر - الجزء الأول منها (النطاسي).

٤ - رواية الطيف الثائر - الجزء الثاني منها (يودايمونيا) تحت الطبع.